

أثر العرب في الحضارة الأوروبية

عباس محمد العفاد



المسؤول: أثر العرب في الحضارة الأوروبية .

المؤلف: عباس محمود العقاد .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الثانية سبتمبر 2005 م .

رقسم الإيداع: 2003/ 16496 .

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-3194-3

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - الهندسة - الجيزة
ت: 3472814-3472814 (02) فاكس: 3402270 (02) ص.ب: 21 أمية
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetna.com

المطبع: 111 المنطقة الصناعية - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 3330297-3330297 (02) - فاكس: 3330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطبع: press@nahdetna.com

مركز التوزيع الرئيسي: 8 ش كامل صديق - القضاة -
القاهرة - ص.ب: 95 القضاة - القاهرة
ت: 3900837 (02) - 3908845 (02) - فاكس: 3908345 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 0800336622
البريد الإلكتروني: 21 شارع 3 ش.ب: 21 sales@nahdetna.com

مركز التوزيع والإستدرة: 48 طموح الصخرة (إشعدي)
ت: 3462733 (05)
مركز التوزيع والتصوير: 49 شارع عبد السلام - هاراق
ت: 2258675 (037)

www.nahdetna.com

موقع الشركة على الإنترنت

www.enahda.com

موقع البيع على الإنترنت



احصل على أي من إصدارات شركة نهدتا بسعر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهدتا مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة
إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

كلمة

فى تقديم الطبعة الثانية

وصل إلى علمى - منذ ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب - مراجع كثيرة فى موضوعه لم أكن قد اطلعت عليها ، كما ظهرت فى المكتبة الأوربية مئات من كتب البحث ، والرحلة تزخر بالمعلومات الجديدة عن الشرق العربى القديم والحديث ، لأن فترة ما بعد الحرب - كما هو معلوم - صرفت جهود الباحثين والمستطلعين فى الغرب إلى تحقيق أحوال الأمم الشرقية التى برزت بعد الخفاء فى ميادين السياسة الدولية، وكانت أصم الشرق العربى فى مقدمة الأمم التى انصرفت إليها جهود أولئك الباحثين والمستطلعين ، إذ كانت فى موقعها المتوسط بين القارات الثلاث قبلة الأنظار ومحور المقاصد ومدار البحث فى أصول التاريخ والعقائد ، بل أصول الثقافة الأوربية التى لا تعدو أن تؤول إلى الديانات الكتابية أو ثقافة اليونان .

وأعود بعد المقابلة بين هذه المراجع الحديثة وبين المراجع التى اعتمدت عليها من قبل ، فلا أرى اختلافاً فى النتيجة ، مع هذه الزيادة الضافية فى المعلومات ومصادرها المتعددة .

فليس فيما وصل إلينا عن تاريخ الثقافة العربية شئ ينقض قواعد الفكرة الغالبة عن أثر حضارة العرب فى التاريخ الأوربى الحديث ، وإنما تتجه هذه الزيادة إلى التوكيد والتثبيت ، ولا تتجه إلى النقض والتغيير فمن الراجع الأخيرة نعلم مثلاً أن أثر السلالة العربية أقدم جداً مما يظنه الكثيرون ، وأنها توغل فى القدم إلى ما قبل التاريخ ، وقد يكون هذا الأثر نتيجة لهجرة العرب إلى القارة الأوربية قبل مجرة القبائل الهندية الجرمانية إلى تلك القارة ، ويعزز هذا الرأى أن البلاد العربية

كانت في تلك العصور القديمة أقدر على صناعة السفن وأرقى عُدَّة للملاحة في عرض البحار ، لأنها كثيرة الغابات موقورة المنابع التي يستخرج منها الطلاء واللحام ، ومن الباحثين اللغويين من يرجح نسبة بعض المواقع اليونانية إلى سلالة من العرب أسستها أو سكنتها في زمن مجهول ، ومنها مدينة لاريسا (العريش) ومدينة لسكرا (العسكر) وجبل الفنديس (الفند) وهو في العربية الجبل العظيم .

فالمراجع الحديثة تؤكد أثر العرب في القارة الأوربية وتعود به إلى أزمنة أقدم من تاريخه الذي كان مفروضاً قبل جيل أو جيلين .

وهذه المراجع الحديثة تزودنا في العصور التاريخية بالبراهين التي كانت تعوزنا لتقرير بعض الحقائق والخروج بها من دائرة الظن والاستنتاج المعقول ... فمنذ أربعين سنة كان المستشرق الإسباني بلاسيوس يظن أن الشاعر الإبطالي دانتي أليجيرى قد استمد وصفه لمناظر الجحيم والأعراف والقرندوس من الكتب الإسلامية التي تتكلم عن البعث وعن المعراج ، وهو يشير إلى سيق أبي العلاء المعري إلى هذا الضرب من القصص في رسالة الغفران ، ويبنى ظنه على مجرد التشابه بين الأوصاف العربية والأوصاف التي تردت في أناشيد الكوميديّة الإلهية ، ولكن الدراسات الأخيرة تثبت وجود هذه الأوصاف العربية في المكتبة اللاتينية والإيطالية التي كانت متداولة في أيدي المثقفين من الإبطالين في حياة دانتي ، ويقول الدكتور محمد عوض محمد إنه اطلع على هذه الحلقة المفقودة ، طبقاً لعنوان الترجمة اللاتينية والفرنسية القديمة والإيطالية .

قال الدكتور الفاضل في محاضرة ألقاها بمؤتمر أندية القلم في مدينة طوكيو منذ سنتين : «... هذه الترجمة علمت كما هو منتظر في قصر الملك ألفونسو في إشبيلية الذي كان يعد نفسه ملكاً مزوجاً على المسلمين والتصاري على حد سواء ، وفي حوالى عام ١٢٦٤م قام الطبيب اليهودي إبراهيم الفقيه بترجمة قصة المعراج المتداولة بين

الناس إلى لغة قشتالة ، وهذه الترجمة فقدت ، غير أن العالم الإيطالي «يونا فنتورا» (١٢٢١ - ١٢٧٤) تولى ترجمة هذا النص الإسباني إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية ، ووجدت نسخ من هذه الترجمة في أكسفورد وباريس والفاتيكان ، وهذه النصوص نشرت في وقت واحد بواسطة الأستاذ تشيرولي في إيطاليا والأستاذ مونيوز في إسبانيا ، وكلاهما لم يكتف بنشر هذا النص القديم الذي يرجع إلى عام ١٢٦٤ أي في العام السابق لميلاد دانتي ، بل تحدث أيضاً عن أثره في كتاب دانتي ، وقد أورد الأستاذ جبريلي أدلة عديدة تثبت أن هذه التراجم كانت متداولة وفي متناول الكتاب بوجه خاص ، وأورد من جملة الأدلة قصيدة من مرتبة دون مرتبة دانتي بكثير ولكنه معاصر له ، ويشير فيها صراحة إلى محمد وقصة المعراج ... »

فالمراجع الحديثة التي تستقصى البحث عن أثر العرب في الحضارة الأوربية لم تغير شيئاً من قواعد الفكرة الغالبة التي شرحناها في هذا الكتاب ، وإنما استحدثت في هذا البحث نوکيداً لها وأدلة عليها ، ولا تزال تنجيه كل عام إلى مزيد من التوكيد والتثبيت .

أما الشئ الآخر من هذا الكتاب - عن أثر الحضارة الأوربية في العالم العربي الحديث - فهو من مسائل العيان التي لا تلجئنا إلى تاريخ وراء ما نذكره ونشاهده ، يوماً بعد يوم .

إن العالم العربي يتقدم في الاستفادة من حضارة الغرب ويخرج من محنة الخضوع السياسي للدول الغربية بكيان مستقل وحياة ثقافية تنسب إليه وتوشك أن تسلك به مسلك المناظرة للأمم الغرب في ميادين الأدب والفن ومسلك الاقتداء الناجح في ميادين العلم والصناعة ... ومن الآمال الصادقة - لا من الأمنى الحالمة - أن تكون مهمة الكاتب عن

أثر العرب في الحضارة الأوروبية وأثر الأوروبيين في حضارة العرب
المحدثين مهمة الموازنة بين كفتين متقابلتين ، قبل نهاية القرن
العشرين .

ويعلم قارئ هذا الكتاب من نعتيهم باسم العرب في التاريخ القديم ،
فهم أولئك الأسلاف من المتكلمين بالعربية التي لم تكن في العالم عربية
سواها قبل خمسة آلاف سنة ، ويخلفهم اليوم بهذا الاسم جميع
الناطقين بالضاد ممن يشتركون في تراث واحد ويرتبطون بمصير واحد ،
كلما تميزت الأقوام بمصايرها في ميادين الفكر والعمل والاجتماع .

وصفوة القول في موقف العالم العربي اليوم أنه المرقف الذي يطيب
فيه النظر إلى الغد ، كما يطيب فيه النظر إلى أمس ، فلا يقرء فيه
الفخر بالأباء دون الأمل في الأبناء .

عباس محمود العقاد

من هم العرب ؟

من هم العرب ؟

هم أمة أقدم من اسمها الذي تعرف به اليوم ؛ لأنها على أرجح الأقوال أرومة الجنس السامي التي تفرع منها الكلدانيون والآشوريون والكنعانيون والعبرانيون ، وسائر الأمم السامية التي سكنت بين النهرين وفلسطين وما يحيط بفلسطين من بادية وحاضرة ، وقد تتصل بها الأمة الحبشية بصلة النسب القديم مع اختلاط بين الساميين والحاميين .

فهذه الأمم كلها تتكلم بفرع من فروع لغة واحدة هي أصل اللغات السامية، ويدل على تلك اللغة اشتراك فروعها في بنية الفعل الثلاثي الذي انفردت به بين لغات العالم بأسره ، وتشابه الضمائر والمفردات وكثير من الجذور والمشتقات . فضلا عن التشابه في ملامح الوجوه وخصائص الأجسام ، قبل أن يكثر التزاوج بينها وبين جيرانها من الأمم الآسيوية أو الأفريقية .

وإذا كان لهذه الأمم جميعاً أصل واحد فأرجح الأقوال وأدناها إلى التصور أن يرجع هذا الأصل إلى الجزيرة العربية لأسباب كثيرة :

منها أن التحول من معيشة الرعاة إلى معيشة الحرث والزرع والإقامة في المدن طور من أطوار التاريخ المعهودة ، وليس من أطواره المعهودة أن يتحول الناس إلى معيشة الرعاة الرحل في بوادي الصحراء بعد الإقامة في الحواضر والبقاع المزروعة .

ومنها أن الجزيرة العربية - في عزلتها المعروفة - أشبه المواقع بالمحافظة على أصل قديم ، وهي كذلك أشبه المواقع أن تضيق فيها موارد الغذاء عن سكانها فيهجروها إلى أودية الأنهار القريبة .

ومنها أن اتجاه الهجرة من ناحية البحرين وناحية الحجاز متواتر في الأزمنة التاريخية القريبة والبعيدة وأقربها ما حدث بعد الإسلام في وقت واحد من زحف العرب على العراق وزحفهم على الشام في عهد الخليفة

الصديق . وليس لدينا ما يمنع أن يكون التاريخ الحديث دليلاً على التاريخ القديم ، ولا سيما إذا خلا التاريخ كل الخلو من رواية يقينية أو ظنية توهم إلى هجرة النهرين وسكان الأودية إلى الجزيرة العربية في زمن بعيد أو قريب ، فإن السُمريين سكان ما بين النهرين الأقدمين كانوا هنالك قبل عشرة آلاف سنة ، ولم يصل إلينا قط خبر عن هجرتهم إلى مكان في الجزيرة العربية ، كائناً ما كان موقعه من تلك البلاد ، بل ثبت على التحقيق أن الساميين هم الذين هجروا موطنهم إلى ما بين النهرين حيث قامت العواصم التي تسمى بالأسماء السامية كمدينة بابل «باب الله» أو «باب إيل» .

أما الرأي الآخر الذي يرجح أن الأمم السامية نشأت في بقعة من الأرض غير الجزيرة العربية فأشهر القائلين به هو الأستاذ «جويدى الكبير» العالم الإيطالى المعروف فى القاهرة ، وأقوى الحجج التى يستند إليها مستمدٌ من مضاهاة اللغات السامية وكثرة أسماء النبت والامواه فى لهجاتها الأولى ، وعنده أن اشتراك اللغات السامية فى هذه المقدرات مما يدل على أرومة نشأت فى بلاد مخصبة كثيرة الزروع والأثمار ، ولم تنشأ فى صحراء العرب وما شابهها من البقاع . وهذا الرأي ضعيف لا يقوم بالحجة الناهضة ولا تؤيده حالة الجزيرة العربية قبل الكشف الحديثة يزمن طويل ، فضلاً عن حالة الجزيرة التى تدل عليها تلك الكشف فى طبقات الأرض وعوارض الجو وعلم الأجناس .

فالمروج الفيحاء والبقاع المخصبة لم تكن مجهولة قط فى جنوب الجزيرة ولا فى جوانبها الشرقية الشمالية عند البحرين ووادى اليمامة ، وهى البقاع التى مر بها المهاجرون من قديم الزمن تارة من اليمن إلى البحرين إلى ما بين النهرين ريادية الشام ، وتارة من البحرين بداءة إلى ما وراها من المشارف الشمالية .

ولم تنزل بقاع اليمامة إلى ما بعد الإسلام مشهورة بالمراعى الواسعة والعيون الثرارة والأمطار الغزيرة والمروج المعشبة التى خلفت مما هو أخصب منها

وأعمر بالإنسان والحيوان في أقدم الأزمان ، وقد لاحظ الرحالة الألماني شوينفرت أن القمح والشعير والجاموس والمعز والضأن والماشية وجدت في حالتها الأبدية في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل أن تستأثر في مصر والعراق وتبين من الكشوف العلمية في العهد الأخير أن الجزيرة العربية تعرضت لأدوار الجفاف وطوارئ الزلازل منذ عصور موعلة في القدم ، فكان القفر فيها يجور على الخصب في أدوار طويلة بعد أدوار أخرى على التدريج ، قبل أن تجور الصحراء على معظمها في عصور التاريخ .

فحالة الجزيرة العربية كافية لتفسير التشابه بين لغات الساميين في ألفاظ الخصب والثمرات والأمواء ، ولكن الرأي الآخر - رأى الأستاذ جويدي - لا يفسر لنا الفرض القائل بهجرة العرب مثلاً مما بين النهرين أو من الشام ، إلى قفار الصحراء ، وهو فرض لا دليل عليه من الروايات القديمة ولا من الأحوال المرجحة على حسب التقدير المعقول . ولا من السوابق المألوفة كما رأينا الأمثلة عليها في التاريخ الحديث .

* * *

وعلى هذا يصح أن نعتبر أن سلالة العرب الناشئين في جزيرتهم الأولى قد سكنت أواسط العالم المعمور منذ خمسة آلاف سنة على أقل تقدير ، وأن كل ما استفاده الأوروبيون من هذه البقاع في هذه العصور ، هو تراث عربي أو تراث انتشر في العالم بعد امتزاج العرب بأبناء تلك البلاد .

وليس هذا التراث بقليل ، لأنه يشتمل على كل أصل عريق - عند الأوروبيين - في شئون العقل والروح وأسباب العمارة والحضارة ، وهي (١) العقائد السماوية و (٢) آداب الحياة والسلوك و (٣) فنون التكوين والتعليم و (٤) صناعات السلم والحرب وتبادل الخيرات والثمرات .

العقائد السماوية

والاديان الكتابية هي أول ما يخطر على البال حين يجرى الكلام على العقائد السماوية التي تلقاها الأوربيون من تراث الجزيرة العربية ، أو من تراث الأمم السماوية ، لأن الأديان الكتابية الثلاثة - وهي الموسوية والمسيحية والإسلام - ظهرت وانتشرت بين سلالات الجزيرة العربية ، على اختلاف موعدهم من الهجرة منها إلى الأقطار التي تليها .

ولكننا لا نعنى هذه الأديان حين نتكلم في هذا الفصل عن العقائد السماوية ، لأنها من وقائع العيان التي لا تزال قائمة في وقتنا الحاضر بغير حاجة إلى استقراء التواريخ ومضاهاة الأخبار والروايات ، وإنما عنينا بالعقائد السماوية كل ما عرفه الأوربيون الأقدمون عن السماء وأفلاكها ومداراتها ، وسلطانها المرعوم على الأرضين ، وطوالعها النافذة في جميع الأحياء ، سواء ما انطوى منها تحت عنوان «علم الفلك» أو ما انطوى تحت عنوان الكهانة والتنجيم .

فعما لا خلاف عليه أن العرب نشأوا في بلاد أصحى سماء وأسطق قضااء من البلاد الأوربية ، وأنهم سبقوا أبناء البلاد الغائمة والآفاق المحجبة إلى رصد النجوم ومراقبة المطالع والمغارب في القبة الزرقاء ، لأنهم على سهولة الرصد عندهم كانوا في حاجة دائمة إلى توسم المطر وترقب الأنواء والخبرة بمواقيت الإدلاج والإسراء في رحلاتهم الطويلة بالصحراء .

ووافق علمهم هذا علم المدائن والأمصار التي قامت بين النهرين ، إذ من المحقق أن تقسيم الأشهر والأيام كما شاع في بلاد الكلدانيين والساميين قد كان عليه طابع اللغة العربية القديمة ، وأن التسمية في

حساب الأشهر ، ولأسبوع في حساب الأبد كانا من المخططات السامية في تلك البلاد ، وظلت بقاياها بين العرب في الصحراء إلى ما بعد الإسلام .

وكأنت ما كان الرأي في الاقبس من الحضارات السمرية بين النهرين فليس «الأسبوع» من عمر السمريين ولم يظهر بينهم قبل ظهور البابليين .

وعن هذه الأقوام العربية الأولى تلقى الأوربيون عقائدهم عن الأسبوع وأرباب الأيام وسلطانها على الأحياء أو على الأحداث والزروع والضروع ولا تزال أسماء الأبد الإفريقية تحمل طابع العقائد «سماوية» كما كان يعتقدها أسلاف العرب المعروفون في القدم ، وتداولها لغات الغربيين إلى هذه السبعة التي نحن فيها

جاء في الجزء الأول من إحوال الصفاء عن أوائل ساعات الأيام «علم أن الليل والنهار وساعاتهما مقسومة بين الكواكب السيارة ، فأول ساعة من يوم الأحد لشمس ، وأول ساعة من يوم الإثنين للقمر ، وأول ساعة من يوم الثلاثاء للمريخ ، وأول ساعة من يوم الأربعاء لعطارد ، وأول ساعة من يوم الخميس لمشتري ، وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة ، وأول ساعة من يوم السبت لزحل »

ويضرب صفحاً عن تقسيم الليالي ولساعات لأن تقسيم أوائل الأيام بعيد فيما نحن فيه ، فيوم الأحد يعرف في الإنجليزية باسم «سندى» Sunday أو يوم الشمس

ويوم الإثنين يعرف باسم «منداى» Monday أو يوم لقمر ويوم الثلاثاء يعرف باسم «تيوزدى» Tuesday أو يوم «تيوز» إله الحرب عند أمم الشمال الأولى ، ويوصفه لتسميه العرسية لهذا اليوم لأن يوم الثلاثاء يعرف فيها باسم Mardi أو يوم مارس وهو المريخ

ويوم الأربعاء يعرف في الإنجليزية باسم «وونزداي» Wednesday أو يوم «ودين» إله المعارف والفنون عن قدماء التيوتون ، وتوضحه التسمية الفرنسية أيضاً لأن يوم الأربعاء يعرف فيها باسم Mercredi أي يوم عطارد وهو بالفرنسية Mercure أو وبالإنجليزية Mercury

ويوم الخميس يعرف في الإنجليزية باسم «ثورزداي» Thursday أو يوم «ثور» إله الرعد عند هدااء التيوتون ، وتوضحه التسمية الفرنسية لأن يوم الخميس فيها يعرف باسم Jeudi أي المشتري وإله جوبيتر Jovis dies ويرجع هذا الاسم «يهو» Jehova الذى يشير به أبناء الأمم السامية إلى الله ، ولا نزال كثير من العرب حتى اليوم يستغثون بالله فينادون «يا هوا» .

ويوم الجمعة يعرف في الإنجليزية باسم «فرايدى» Friday أو يوم لربة فريج Freig روحه عطارد ومقابلة ازهره فى صفاتها وتوضحه التسمية لفرنسية ، لأن يوم الجمعة يعرف فيها باسم يوم لرهرة Vendred أو يوم هينوس

ويوم السبت يعرف في الإنجليزية باسم «ساندداي» Saturday أو يوم زحل Saturn فى تلك لغة إلى اليوم ،

* * *

ويتبين من معانى أيام الأسوع عندهم أن عقائد لتنجيم التى أخذوها عن السلالات العربية قد تعلقّت فى شعوبهم الأوربية من أقصى الشرق إلى أقصى لغرب ، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وهى العقائد التى تربط بالعيشة اليومية وطوال الأوقات وسلطان الأفلاك العليا على الأحياء وحوادث الأيام .

فهى على هذا أكبر شأنًا واشدّ فعلا فى الحياة من تسمية مقبسة من تقويم منقول

وعد اصطليغت حديثهم العاطفية بما تقوده من أسماء تلك الأرباب
وخصائصها فشملت لشعور باقداسة والشعور بالعصب ولشعور
بالحب والغرام والجمال .

فبسم الإله الأكبر Jove أو Jehova مأخوذ كما قدمنا من اسم
«ياهو» الذي جرى على السنن إلى أيامنا لحاصرة

واله العصب ولحرب عندهم مأخوذ بلفظه ومعناه عن إسمائيل
لأقدمين لأن Mars هي تصحيف ظاهر لكلمة لمريخ

وربة الحب أو «لعنرا» الفاتنة «فينس» هي تصحيف كلمة «منب»
السامية . وكانت تكتب عندهم بالـ «ثم» صحفت إلى «افاء» كما يقع ذلك
في كثير من الأسماء . وهكذا فعلوا بأسماء الزهرة لأخرى . فصحفوا
عشتار إلى «استر» أي انجمة . وهي عشتار في اللغة العربية السامية
القديمة . ثم عرفها الساميون في شمال الجزيرة العربية باسم عشتار
وعشتروت

وكذلك أخذوا أدونيس Adonis إله لغتوه والجمال من «أنوبي»
بمعنى السيد أو الرب عند الكنعانيين

فهم قد مزجوا معيشتهم اليومية وحياتهم العاطفية بعقائد السماء التي
تلقوها عن السلالة العربية ، ولم يقصروا لنقل على علم الفلك ولا أزياج
النجوم ، فإنهم - كما سيبى في بعض فصول هذا الكتاب - قد ضلوا
يقبلون عن العرب في هذا العلم إلى ما بعد الإسلام زمن طويل ، وقد
بقيت في لغاتهم عشرات الأسماء العربية للكواكب و بمصطلحات الفلكية
بتحريف قليل أو بغير تحريف

آداب الحياة والسلوك

وقد كانت المدرسة الكبرى بمعنية آداب الحياة والسلوك بين مدارس الفلسفة التي اشتهرت باسم « لفلسفة الإغريقية » هي مدرسة شرقية في أصول أسسها ، وأصول مبادئها ، وأصول تفكيرها التي اقررت بها بين أصول لتفكير الغالبة على العقول حكماء الإغريق الأصلاء

ونعني بتلك المدرسة الشرقية الرواقيين

فقد كان رأس هذه المدرسة « رينون » من أصل « كنعاني » أو فنيقي كما كان الإغريق يسمون بعض كنعانيين ، وكان مولده على الشاطئ لشرقي من جزيرة قبرص في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد

وكان من أمطاب هذه المدرسة من ولد في صيدا ومن ولد على ضفاف نهر العاص أو نهر الدجلة .

وكان لها شأن حليل في الثقافة الإغريقية ثم في الثقافة الرومانية ثم في المدرسة الأفلاطونية التي نشأت بإسكندرية ، وبقي لها هذا الشأن في تفكير الأوربيين وآداب سلوكهم إلى عصور النهضة والإصلاح الديني وما لازمه من ضروب الإصلاح الأدبية فكانت لفلسفة الرواقية هدى لطلاب الإصلاح في طلب الكمال وطلب السعادة وطلب الحكمة العلمية هي الحياة

وحسبك شاهداً على مكان هذه المدرسة من السيطرة على الآداب الأوربية في دولة الرومان أن سنيكا وشيشرون وإبيكتيتس ومارك أورليوس كانوا من أتباع الرواقيين وأنها المدرسة التي طرأت كمر مدرسة أخرى في آمد ، البقاع واتساع النطاق ، فلم تضارعها في طور

بقائها واتساع نطاقها مدرسة فلسفة نشأت على عهد الإغريق و الرومان ،
وأن النمط الرواقى فى الحياه كان ولم يزل من الغربيين قدوة الرجل
الكمال - أو طالب الكمال - إلى عهد ديكارت لفرنسى وإمريسون
لأمريكى ، ومن تتلمذ عليهم إلى هذا الجبل

وقد كان طابع الدهن السامى وتكد نقول طابع الجريرة العربية
محفوظاً على كل ما عظمته المدرسة ، رواقية فى باب الغيبيات أو باب
العلم الطبيعى أو باب الأخلاق .

فكانت تدبر بأسوحيده ومسبة الفعل كله إلى الله والافعل كله إلى
المادة وقد تمين أحصاء إلى وحده الوجود فيما طرقه من محووث ما وراء
الطبيعة .

وكانت ترى فى باب العلم الطبيعى أن الشيء الموجود هو الذى يفعل
أو يفعل ولا وجود بغير ذلك من لفروض المثالية أو لفروض الخيالية
فكل ما فى الكون مرجعه إلى الحس والخبرة وقدرة لفعل ولا تفعل
ولعلمهم كتبوا فى هذا لب رواداً سابقين للمدرسة التجريبية التى
ظهرت بعدهم بألفى سنة ويعبرو «سترايو» الجغرافى لكبير إلى
موحوس لصيداوى أنه أول من قال بالجوهر الفرد قبل حرب طروادة
ويستند فى هذا الخبر إلى رواية بوسيديوس الفيلسوف الرواقى
المعروف ، وهو سبق له معناه فى عصر الكلام على الجوهر الفرد
والقبيلة الدرية

ثم على ، لأخلاق فلا قيمة عندهم للبحث الفلسفى إن لم يكن له نفع فى
طب لحياة الفاصه ونشيدان السعادة والتطلع إلى الكمال ، ومساك لأخلاق
المثلث عندهم صمد لفس وثرة لإرادة واحتب لمطامع واشتهوات
وليس من العسير تحليل هذه النزعة الرواقية أو هذه الفلسفة العربية
القديمة ، لأنها تنبعث من مصادر ثلاثة كل منها خالق أن يتجه بها هذا
الاتجاه وهى سلطان القبيلة و سلطان الدين ، و سلطان الدولة والنظام
فالقبيلة تفرض على أيدئها حياة لصبر والشطف والمحافظة على
الراث القديم ، وتجعل كل فرد من أئنائها مسئولاً عن القبيلة بأسرها ،

فعلية من حل ذلك حسب عسير هي كل صلة بين سائر لأفراد من تلك
قبيلة أو من ابناء القبائل الأخرى ، وغاية ما يحذر الرجل في ظل هذا
اسلطان أن «يخضع» فيصبح كما يسمونه حليعاً لا حساب عليه

ثم ينتى سلطان الدين والكهنة بعد انظام القبيلة في دور الحضارة
و لعرف الموروث ، ولم تعرق الكهانة القديمة عن المواسم و لاداب التي
تلتزم في اداب المعيشة والسلوك ، وينعرض الخارج عليها لخطر حسيب
يصارع خطر «الخلع» أو يزيد عليه لأنه يخلعه من حظيرة قومه
وحظيرة الله على أسواء

ويتمشى مع سلطان لدين سلطان النظام وبقائهم في الدولة المهيبة
قنماً على ركنين من وشائج لعصبية وفرض العبدية ، أو قائماً على
الحاسة الموروثة في عنصر السب وعنى العقيدة المستقرة في
الضمير

فإد، اتفقت هذه المصادر لثلاثة على إنشاء مدرسة من مدارس
الحكمة فلن يكون عجيباً أن تنشأ هذه لمدرسة على مثال الرواقين ،
فمن نشأتها بين السلالات العربية دفهومة قرية النعليل وإنما
المستغرب الذي يخفى تعيله لموهلة الأولى أنها انتشرت في البيئة
الإغريقية والبيئة الرومانية أو البيئة لأوربية على الإحصار ، فبولا ما
أصاب لعالم الأوربي من القلق النفساني بعد فتوح الإسكندر وقبل
الدعوة المسيحية لتعذر فهم ذلك الانتشار ،

التدوين

ولا تستطيع المبالغة فيما استفاده البشر من اختراع طريقة لإثبات المعانى بالحروف وإشابة لأعداد بالأرقام ، ههنا تدوين المعرف لبشرية كلها راجع إلى هذا الاختراع النفس

ومما بقل فيه الخلاف بين المؤرخين والمفسرين أن حروف الكتابة العربية والكتابة الإفرنجية ترجع إلى مصدر واحد ، وأن الأوربيين اعتمدوا على الكنعانيين أو الإرميين في اقتباس حروفهم الأولى ، وهى مشبهة فى لفظها ورسمها لبعض الحروف السامية ، ولاسيما الألف والداء والحيم والدال ، وكلها ذات معان معروفة فى لغات الساميين .

ومعظم الباحثين فى هذا الموضوع يرجحون أن الحروف الكنعانية أو الإرمية بدرجت من حروف مصرية مأخوذة عن لصور الهيروغليفية القديمة . وأن اللوحة التى عثر بها سير فلندرس بتري فى شبه جزيرة سيناء (سنة ١٩٠٦) تشتمل على النموذج الوسط بين الصور القديمة والحروف الأنجدية كما نشرها الكنعانيون والإرميون . ويقرون أن هذه اللوحة ترجع إلى أقدم من ثلاثة آلاف وخمسة مئة سنة وقد كان الإرميون فى ذلك العهد يعيشون فى شبه جزيرة سيناء .

ولعل الصور الهيروغليفية فى مصر سبقت مثيلاتها فى بلدان العالم لتواهر ورق الردى ومداد الكتبة الثابت فى وادى النيل . ولكن الأوربيين هم يقتبسوا مباشرة من وادى لنهر لحرص الكهنة على إخفاء هذه الأسرار . فلما بلغت من الزمن طور لحروف الشائعة أمكن أن تنقل إلى جور مصر فى سيناء وبخومها الشرقية حيث أقام الإرميون والكنعانيون

ومما لا شك فيه أن فصل الشر والبعثم لأنباء الجريده العربية فى هذا الاختراع النفيس ، أنهم بقوه إلى الأقصار لأسبوبة كما نقلوه إلى

الأقطار الأوربية ، فأخذ اليهود حروفهم من اليمن كما أخذ الإغريق حروفهم من عرب الشمال بفلسطين

وطريقة استرقيم الحسببية أحدث كثيراً من مريقة الكتابة بالحروف ، ولكن تقويم الحروف بالقيم الحسببية قديم في الشعوب السامية ، ولم اقتبسوا الأرقام الهندي بعد الإسلام صقوبها وأضافوا إليها علامة لصفر والطريق العشرية ، ومن ثم عرب هذه الأرقام عند الأوربيين باسم الأرقام العربية ، ولا يزال اسم الصفر عندهم «زيرو» Zero محرفاً عن اسمه فيها

صناعات السلم والحرب

ويرى «إسحاق تايلور» Issac Tay or أن الإغريق اقتنسوا نظام الأوزان وسك النقود عن البابليين من طريق الإرميين فالتدسين في آسيا الصغرى .

وقد كن لإرميين بطون في العراق ويطون في سبناة وفلسطين ، فكانوا بتشرون ما قبسوه من وادى الهرين وودى النيل على السواء ، وكان الإغريق على اتصالات بهم في الموانئ الشرقية من آسيا ، لصغرى إلى نخوم سبناة ، فنقلوا عنهم وسائل الحضارة والتجارة قبل أن يهتدى إليها أبناء القارة الأوربية مزمعن طويل .

و لإغريق ملاحون قدماء في صناعة الملاحة ، ولكنهم لم يسبقوا الكنعانيين إلى هذه الصناعة لأن هؤلاء قد عكفوا على نقل لتجارة اببحرية وأوشكو أن يحتكروها في شرق لبحر الأبيض إلى ما بعد أيام لإسكندر ونشأة الإسكندرية ، وعانهم على تحويد الملاحة كثرة الأخشاب الصالحة لبناء لسفن في أرض كنعان ، وكثرة المحاصير التي يحتجون إلى بيعها والمناذلة عليها في الموانئ اقرية أو البعيدة ، ووقوع بلادهم على شواطئ بحر تقضى إليه التجارة الاسيوية في أبعاد لأقطار

وربما تعلم الإغريق صناعة السفن من اكنعانيين أو من البابليين . وقد تفيدنا هنا قصة نوح وسفينته لأنها سفينته ورد لها ذكر في اتاريخ . ولا شك أنها لم تمن في بلاد الإغريق بل بسبب في بلاد قريبة من بلاد التورة ، أو قريبة مما بين لعرق وفلسطين ، وقد وجدت آثار السفن الفينيقية القديمة الجنوبية ، وقد ذكر هيرودوت رحلات لفينيقيين ولعصريين في عهد الفرعون نبحاوس . وكنو أول من عرف الأمم في ساحل أفريقيا الشرقي معرفة يقين . بما كان الإغريق يعرفونهم على أيام هوميروس معرفة سماع .

هذا كان تحقيق السبق عسيراً اليوم فالأمر لدى لا يعسر تحقيقه ر
الكنعانيين أو الفينيقيين كما سماهم الإغريق - توسعوا في الملاحة
 وإقامة المستعمرات البحرية أبعدية توسعاً لم يبلغه الإغريق في الزمن
 القديم ، وأنهم إذا كانوا قد اقتبسوا الموارد والثروة والكتابة وأرصاد
 اللحوم وخصائص الأيام الفلكية عن السامس فليس بالنعيد أنهم تلقوا
 عنهم دروساً في الملاحة والجارة وبدء السفر وتوجيهه في البحر على
 حسب الطوالع والنجوم

ومما يلاحظ في سباق الكلام على مقتبسات الإغريق من الدول
 السابقة في شئون الحياة اليومية وشئون الحضارة عامة ، أن أبقراط
 المنقب بأبي الطب قد نشأ في جزيرة كوس وأر جالينوس أشهر
 لأطباء اليونان بعده قد نشأ في سيبا الصفري ، وانها قد سحا في
 أرض كنعان ورم كما سحا في الديار لمصرية ، ولا خلاف في
 اقتباس أبقراط وجالينوس من صب لفراغة القديم ، ولكن المعارف التي
 قتبسها أهل سيب الصفري من كنعان وبابل لا بد أن تشمل لمعارف
 لطبية التي تلازم حضارات العريقة، ولا يمكن أن تستثنى منها بفرض
 من لفروض

* * *

وتلك هي خلاصة الحضارة القديمة في كلمات معبورات قلم تكن
 هناك صناعة من صياغة السهم لم يتعلم فيها الإغريق على أمة من
 سلالة الجزيرة العربية ، أو لم يكونوا فيها لاحقين على إثر سبقين
 وعلى هذا ، لاعتبار - أي اعتبار الساميين بجميعة من سلالة الجزيرة
 لعربية - يجب أن يعود إليهم فضل الفنون الحربية التي استفدها
 الرومن من القائد لقرصاحي المشهور باسم هيسال فإن معركة
 «كاسي» Gannae التي هزم فيها الرومانيون نصف عددهم على وجه
 التقريب لا تزال محورا للبحث والمناقشة ومرجعاً للدرس ولتعلم في
 أحدث مدارس أوربة العسكرية وهي على هذا لم يكن إلا فناً من فنون
 كثيرة عرجي بها الدومانيون من أسباب ذلك القائد العظيم في حق لئود

سائر والمحر والسرول بهم على الشواصن لمكشوفة والصعود بهم إلى قُل
الحبال ، واستخدام السفن المستكرة في البحر وانتكار الخطط السريعة
لتسخير الحيوان في المعارب البرية ومنه لفيل وحصان
ولو شاء المؤرخ أن بعد هنبدل عربياً بحثاً - ولا يحعه من سلالة
لعربية وحسب - لكأن له قرينة من اسمه وسم وصفه وباريع ظهوره
فإيه ظهر في القرن الثالث قبل الميلاد حين كانت الأمة العربية قد
شارفت طورها الحديدي لدى نفيل عليه إلى اليوم ، وكانت في اسمه
لهجة العربية كما كانت لفظ في ذلك الزمن ، أو على نحو مقرب منها
غرية لافتراب لأنه سمي «حنى بعلى» وهو اسم يرانف نعمة بعلى أو نعمة
الله وسمي ببلدته «قرية حدش» أو القرية لحديثة فصحت إلى
قرناش فقرطاج ببعطيش الحيم كما نطق بها الرومن ، وكان اسم أبيه
حامى القرية أو «هاملكار» بعد النصحييف وانحريف

* * *

وخلاصة ما تقدم أن الأوربيين تتلصقوا على أبت ، لحزيرة العربية في
مسائل العقدة ومسائل الحضارة والمعيشة اليومية ، قبل أن نبليغ أوربة
مبلغ المعجم لغيره في أمر من الأمور
ولا بقدرح في هذا أن السمريين - ممكن ما بين النهرين الأولين
كنوا شعباً من شعوب لعنصر لأرى كما جاء في بعض التقديرات التي
تستحق المصروالترجيح
فإن المحقق الذي لا تختلف فيه الضنون أن لمعرفة لفلكية التي
وصلت إلى الأوربيين ويرو عليها عقائدهم هي الكواكب والأيام مصبوغة
بالصبغة البابلية سواء هي لأسماء أو الصفات ، وأن الكتابة قد وصلت
إلى الأوربيين والهنود من طريق أبناء الحضيرة العربية في أقصى الشمال
أو أقصى الجنوب وأنه مهما يكن الظن بالابتكار في أطواره الأولى ،
فالطابع لسامي ظاهر على أول ما قتبسه الأوربيون من مروس العلك
والكتابة والحكمة لرواقية وبعض أسباب التجارة ولعلاحة والعمارة ،
وليس في شيء من ذلك ، لا هي غيره ، طابع ضاهر لسمريين

الأصل والنقل

لأصالة قدر مشترك بين جميع لحضارات بكل حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سمة تميزها بين الحضارات العالمية ولم توجد قص حضارة تفردت بالإبداع أو تعربت بالنقل أو خلت من السمة التي تميزها بين سمات الحضارة .

إلا أن المبدعة الحديثة التي نشأت حول الأرية ولسامية قد جنحت بالأوربيين منذ ظهرت فهم إلى اختصاص الحضارة العربية بالنقل دون الإبداع ، وحسب إليهم أن يمزقوا عليها حضارات الأمم الأرية - ولو كانت شرقية - مملكة الإبداع والتعكير الحر ولا سيما في المحدث النظرية التي يراد بها العم للعم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو الانتفاع به في مرافق المعيشة ، لأن تمييز الشرقيين لآريين ينتهي إلى تمييز العصر الأوربي في أصوله الأولى ، وهي ادعوى لتي يسوغ بها سيدهته على أمم للعالم

وقال منهم قائلون إن هذه السمة - سمة النقل - لازمت لجنس العربي منذ كان له تاريخ متصل بتاريخ العالم في أقدم العصور ، فالسمريون سبقوا الأمم العربية فيما بين النهرين وبلغوا شأواً عظيماً من الحضارة والعمران تدل عليه الآثار التي بقيت بعدهم ولا تزال فصله منها كافية لتقديره أحسن تقدير فلا حرم كان البابليون الكلدانيون مسبوقين إلى حضاراتهم فيما بين نهريين ولم يكونوا فيها سابقين ولا مبتدعين

ولما تجدد ظهور العرب بعد الإسلام كانت لهم حضارة ولكنها كانت كذلك حضارة منقولة ولم تكن بالحضارة المبتدعة على أيديهم ، وثبتت سمة النقل بإحصاء أسماء العلماء والمفكرين الذين نهضوا بأمانة الثقافة في ظل الدولة العربية ، فإنهم كلهم - إلا القليل منهم - كانوا من الشعوب الأعجمية لتي دانت بالإسلام ولم يكونوا من العرب الأصلاء . وتلك هي الحجة التي يستند إليها دعاة العصرية الأوربية في تحديد الأمم التي لا تتوشح بينها وبين لأوربيين واشجة قرابة ، من مزايا الإبداع والتفكير .

وهذا الكتاب فيم نرى هو موضع الفصل في هذه الدعوى الشائعة أو هو على الأقل موضع الإشارة إلى البيئة الراجعة و البيئة المرجوحة من أقوال دعايتها ، لأن تمحصر لمزايا العربية هو قوام الكلام على أثر العرب في الحضارة الأوربية .

وأول ما يوجب التشكيك في هذه الدعوى أن نسأل أين هي الحضارة التي بُدعت ولم ننقل ؟ وأين هي الحضارة التي يقال عن جميع علماءها إنهم من عنصر محض خالص ينتمون إليه ولا يمتزج بالعناصر الأخرى ؟ فالإغريق نقلوا عن أن يدعوا ، وعماؤهم كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع - قد نسفوا في آسيا الصغرى وحزر لأرخيبيل وصقلية والإسكندرية وفلسطين والشام وتحوم العراق ، ولم يحصر بيوعهم في مكان واحد يقال إنه هو موطن العنصر الخاص ، لدى لا يشويه عنصر دحس ويصدق هذا على الهند وفارس والصين ، كما يصدق على أية أمة من سلالات الأوربيين المحدثين .

ولا شك أن السمريين الأقدمين كانوا سلالة أخرى غير السلالة العربية لأنهم يخالفونها في معدن اللغة وخصائص المزاج ، ولكن الحزم بمشبههم لأصيل أمر لم يسر للباحثين إلى يومنا هذا فقد تناسن القول في منشئهم حتى قال أناس إنهم من المغول وقال آخرون إنهم من المصريين ، وقال غير هؤلاء وهؤلاء إنهم أورييون منحدرين من لشمال إلا أن أقول بأن لعرب الذين وعدوا إلى بلادهم لم يدعوا شيئاً غير ما أبدعه السمريون هو محض تخمين وظنن ، لأن العالم لم يتلق عن السمرين أثراً من آثار حضارتهم في حينها ، ولما تنصت العلاقة بين بلادهم وما جاورها كانت السمات العربية ظاهرة في معدن اللغة وعبادات الاجتماع ومرايا التفكير ، فلا موضع هذا للحرم بأن لعرب نقلوا ولم يدعوا وأن السمرين قبلهم أيدعوا ولم ينقلوا ، مع جهز كل لجهل بما أمدعوه وما نقلوه

ما في لعهد الإسلامى فقد اشتركت الأمم الأعجمية حقاً في أمانة الثقافة ، وكان لفضلائها قسط عظيم في مختلف العلوم والدراسات ، ولكنها لم تنهض هذه النهضة إلا بعد ظهور الإسلام فيها ، ولم تكن لها

في أبان محدثها لقديم فصلة على لعنصر لعربي في الدراسات النظرية التي يرد بها العلم للعلم ولا يراء بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة .

وكل نظر صحيح في هذه لمسألة يوجب الشك في السبب الذي يرد بها إليه دعاة العصبية العنصرية ، وهو العجز الأصير في تفكير العربي وفته استعداده لمبحث الفلسفي والدراسة لطرية والاهتمام بالمعرفة والاستطلاع لغير الكسب والانتفاع . مثال ذلك أن الذين جمعوا احديث في أول حركة الجمع كانوا من الأعاجم وكان أقلهم من العرب الأصلاء ولم يقل أحد قط إن العربي نعوره ملكة الرواية وحفظ الأنساب والإسناد ، وهو الذي وعى بالصحافة من أنسابه وإساده ورواياته ما لم يسحر في وعى ضم كثيرة من أمم الساوة أو الحضارة

فلاند من لرحوع إدب إلى سبب غير ، اسبب لعنصرى لمرعوم لنفس القلة الملحوظة في عدد العلماء من العرب لأصلاء ، في بعض العصور وادعى من هذا إلى البحث عن سبب غير ذلك السبب أن لعرب الأصلاء قد شتغلوا بالفلسفة والحكمة في الأندلس وعلى عهد العلويين وأواخر لعباسيين وأن تاريخ لثقافة العربية يشتمل على أناس مثل بن الهيثم والحسن بن أحمد لهم بى (المتوفى سنة ٣٣٤) صاحب كتاب سر ثر احكمة وأنساب حمير ، وهو محيط بمبحث الفلسفة عن أنصر العالم وقواعد لنطق ولكلام ، ومثل ابن لنصر لقاضي الذي قال فيه أبو الصلت في رسالته عن منجمي مصر

« أما المحضون الآن بمصر فهم أصبؤف كما حذيت الفعل بالفعل لا يتعلق أكثرهم من علم النجوم سكثر من رائحة يرسمها ومراكز يقدمها ، وأما لتبحر ومعرفة لأسباب والعلل والمبادئ الأول فقس منهم من يرقى إلى هذه الدرجة ويسمو إلى هذه المبرزة ويحلق في هذا الجو ويستصىء بهذا الضوء ما حلا ، بقضى أنا احسن على بن لنصر المعروف بالأبيب فإنه كان من الأفاضل الأعيان المتعودين من حسنت الزمان »

وهي كتب الراحم والسير - ولا سيما أخبار الحكماء للقفطي -
حاصلت هبة عن كثير من الفلاسفة والحكماء ممن لم يبرقوا الشهرة
في صدر الإسلام ، وقد اشتهر مع هذا رجال كالكندي ومحمد بن
إبراهيم الفزاري وأبناء موسى بن شاكر لثلاثة محمد وأحمد والحسن
في العهد الذي برزت فيه أسماء العلماء من لغرباء عن أسئلة العربية
ولا يذهب بنا البحث عن سبب لقصور انصاري إلى بعيد ، فإن
الأسباب كثيرة مكشوفة قريبة التدول لمن يريد أن يراها ، ومنها أن
الأعجم سبقوا العرب إلى صدعة مكتوبة لأن العرب كانوا في صدر
الإسلام أصحاب قيادة ورئاسة شغلانهم الفسوح وسياسة البلد ن
الصفوحة عن دراسة العلوم التي يغني عنهم فيها أعوانهم من الأنباغ
والعروسين

ومن ملك الأسباب أن الأهم الطارئة على إسلام كانت أحوج إلى
علم اللغة والعفة والبحث عن مصادره ، وإلى الاستمسك في بلادهم
البائية بعروء الدين لا تربطهم مادولة عروة سواء

ومنها أن الدولة العباسية قامت على الأعاجم فقربتهم وتعهدتهم بالمكافأة
والتشجيع ، فقاموا على البحث ولعلم وهو على ثقة من حسن الجزء ،

ومنها أن عدد الفضلاء لأعجم هو عددهم بالقياس إلى جميع أفراد
الأهم التي يستحقون إليها أما عدد الفضلاء من صميم العرب فهو عددهم
بالقياس إلى الفتحين لراجلين عن لحزيرة العربية ، وهم قلة صغيرة
إلى جانب الذين تخلصوا بعدهم في البادية على نحو معيشتهم الأولى

ومنها أن لجدل والمناظر من لذات الأمم المعلوبة لأنها تنفس فيها
الغلب الذي قاتنها من جانب اسسادة والقيام على أعروش فالقصور
الانصاري سبب لا تلجأ إليه الحقائق ولا تتركه عند المصنفين

أما الثابت من هذه الحقائق فهو أن الدعوة التي احيت الحضارة هي
دعوة لدولة إسلامية قد جاءت من السلالة لعربية ، وأن حضارة الدولة
إسلامية هي التي سمحت بحقاء ما بقي من حضارة الفراعنة والإغريق

والفرس والهنود ، ولولا قوة «موجبة» هي العبقريّة العربيّة لما جاءت تلك الدفعة ولا تيسرت تلك الحضارة .

ليس كل ما انتقل على أيدى حضارة إسلامية عربيّة محضاً في الأصول والفروع ، ولكنّ حسنها إنه لم ينقطع على أيدى ، فانصلت بفضائها وشائجها بالتاريخ القديم والحديث ، فحفظت تراث الإنسانية كلها وزادت عليه وبقلته إلى من تلاه . وكل حضارة صنعت ذلك فقد صنعت خيراً ما يطلب من الحضارات . ومن طلب إليها ألا تورث الدس ، لا شيء جديداً من ابتداعها فقد طلب إليها أن تُلغى كل ما تقدمه ، أو هو قد طلب إليها ما يسدّ القصور الحضارة في فضيلتها الكبرى ، وهي فضيلة السماحة والحرص على تراث بني الإنسان . وفيما يبي بعض ما حملته من أمانته الحضارة إلى العالم الحديث .

الطب والعلوم

أشاد هوميروس في الأوديسى بمهارة لأطباء لمصريين ، وقال هيرودوت غير مرة إنهم كانوا يعالجون أنوعاً شتى من الأمراض يختص كل منهم بعرض يدرغ في علاجه ، وروى أن قورش أرسل إلى مصر في صلب طبيب للعيون ، وأن درا كان عظيم الإعجاب بهم كثير الثناء عليهم ، وكان الإغريق يعرفون اسم « محوتب » رب الحكمة في مصر القديمة ويسمونه بلعنتهم أموثيس وقد نقبوا عن الطب لمصرى كثيراً من لعقاقير كما نقلوا آلات الجراحة بغير تبديل

وتلقى لإعريق شيئاً من الطب الكلداني كما كان في عصوره القديمة مزيحاً من السحر والتعويذ والعلاج .

ثم دارب دورة للثقافة الإنسانية على أتمها في هذه الصناعة اتى يحتاج إليها جميع الناس ، فأعاد الإغريق ما أخذوه وما زأسوه إلى لمصريين في عهد مدرسة لإسكندرية وإلى الكلداني واسريان في أواخر الدولة الرومسية الشرقية ، وكان في ذلك لحين حصّة من تراث الأديرة وكهاسها ، يتدرسه من يتدارسون العلوم باليواسية أو اللاتينية ، وكان معظمهم يومئذ من رجال الدين

واستعان الفرس بأطباء ، لسريين والروم فأنشأوا المدرسه لطبيه والمستشفى المشهور بحتديسابور ، وكان عليه معول الشعوب القريه كلها في إتمام معارفهم الطبيه ولتوسع في الاصلاح على فنون لعلاج عن سائر الأمم ، ومن نلاميده «لدابهين بين أطباء العرب لحارث بن كلدة الذى تعلم الطب في الجاهلية وأدرك لإسلام

وقد عرف لعرب التصيب في أقدم عصور الجاهلية على طريقة الداوة في مزج الطب والكهانة وعلاح الأمر ص بالوسائل البدائية ، فكان لكل

قبيلة عرافها الذي يستشار في كل ما حربها من الأمور ومنها لعل
وانشكيات

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياى

وكان طب هؤلاء العرافين يحيط بين لرقى والسحير ونعاطى الأنوية
اسى بقرن بالعرايم والعبوب ، ومع العرفين اطباء محبسون بالعلاج
لا يراولون الكهانة ولا يموهون على المرصى باسم الجن أو لأصنام ،
ويعالجونهم بالقصد والكى والحجامة والحمية ويعص العفاير والأعشاب
التي سبت في بلاد العرب أو بجلب من الهند والصين ووصايا هؤلاء
الاطباء سل على خبره حسنة بتصحيح الأجسام ، كما قال الحارث بن
كلدة ، « من سره ابقاء ولا بقاء فليباكر لعداء ولحفف الرءاء وليقلل
عشيان النساء » .

وسأله معوية ما لطب يا حارث ؟ فقال الأرم يا معوية ' معنى
الجوع وكان ينهى عن الاستحمام بعد لطعام ويوصى بالتخفيف من
الديون و لهموم وكانت لهم طريقة عملية نجعة في التمس الدواء
لما استعصى عليهم دواؤه وهى أن يخرجوا المريض إلى طريق لقوئل
ليراه من أصب يمثل مرضه ويصف له الدواء الذى شفاه

ويبدر لنا أن شتعال العرب الطويل برعى الماشية قد باعد بينهم وبين
طب الكهانة والحرافة وقارب بينهم وبين طب لتحارب العملية ، لأنهم
راقبوا الحص ولولادة والنمو وما يتصل به من الأطوار الحيوية وشرحوها
الأحسام فعرفوا مواقع الأعصاب منها وعرفوا عن هذه الأعضاء في بنية
الحيوان نحواً من المعرفة المسببة ، فاقتربوا من الإصابة في تحليل
المرض والشفاء ،

وجاء الإسلام فقصى على الكهانة وفتح الباب للطب لطبيعى على
مصراعيه ، لأنه أبصر المداواة بالسحر والشعوذة ، ولم يحدث في مكان
الكهان طبقة جديدة تتولى العلاج باسم الدين بل سمح للنبي عليه السلام

باستشارة أطباء ولو من غير المسمين فلما مرض سعد بن أبي وقاص
فى حجة الوداع عادته النبى وقال له إنى لأرجو أن يشعبك الله حتى يصرف
لك نوم وينتفع اخرون ثم قال للحارث بن كلفة «عالج سعداً مما به»
والحارث على غير دين الإسلام وذكر لقراى لقمان الحكيم (ولقد آتينا
لقمان الحكمة أن اشكر الله) ومنها التصيب أو هى الطب قبل سائر صروب
الحكمة ، فجعل الإسلام هذه الصناعة نعمة يشكرها من أسبغها الله عليه ،
واتخذها وضيفة معرفاً بها ولو لم تكن من أعمى المتدينين

لهذا كثر اشتغال المسيحيين بالطب فى ظل الدولة الإسلامية ، وبغ
الأطباء بين نصارى المشرق فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة العربية
تحرم صناعة الطب لأن الممرض عقاب من الله لا ينفعى للإنسان أن
يصرفه عن استحققه ، وظل الطب محجوراً عليه بهذه الحجة إلى ما بعد
انقضاء العهد المسمى بعهد لإيمان ، عند ستهلال القرن الثانى عشر
للميلاد ، وهو إبان الحضارة الأندلسية

وقد دعى إلى الامتحان فى بغداد نحو سعمائة طبيب على عهد المقدر
بإله وهم غير الأسانده اشقات الدين تجاوزوا مرتبة الامتحان ، وهى عناية
بالطب والصحة لم يشهدا قط حاضرة من حواضر التاريخ القديم

ومن هذه الكثرة فى عدد الأطباء ومعنى الطب يبين لنا أن الحاجة
إلى دراسة الطب والعلوم كانت حاجة عمران كامن وم تكن حاجة أفراد
أو طوائف محددة

فمن الجائز فى بداية الأمر أن الملوك احتاجوا إلى الأصباء لبارعين
قاستقدموا إليهم من برامت إنبهم سمعتهم بالقدرة والدراية ، ومن
الجائز كذلك أن بعض الرهبان أو العلماء فى صوائف لسريان والروم
كانوا يقطعون لدراسة العلم فيما انقطعوا له من صوائف الدراسات ،
ولكن العاصمة لا تتسع لأكثر من ألف طبيب فى وقت واحد ما لم تكن
الحاجة إلى طب والعلم حاجة عمران واسع لأصراف ، وقد كان
السريان والروم فى أمكنهم وكان معهم أقوامهم وذوهم وكنبهم

وودائعهم هي ظل القياصرة و لأكاسرة ، فلم ينسج نطاق المعرفة هذا الاتساع ولم يبلغ ارتقاء المعيشة في عهد الحضارة الرومانية أو الفارسية هذا المبلغ ، وإنما الجديد في الأمر هو التقاع لطب في بنيه المحتتم مع قيام الدولة الصالحة لتي نهضت بها العبقرية الإسلامية وتكففت بها سماحة الدين الجديد

ولم تكن مزاوله الصناعة وحدها هي لغرض لمقصود من هذه النهضة الواسعة وهذا التعليم المستفيض ، لأن أشهر الأطباء كانوا بضيقون إلى عم الصب عم آخر كالفلسفة أو الهندسة أو الفلك أو الكيمياء ، وكأما يؤفق الموسوعات ويطلبون البحث في أمهات هذا العلم حيث كان .

وقد كان بعض الدراسة كفيًا لمزاوله الصناعة في تلك العصور ، ولكنهم طلبوا لعلم للعلم فلم يقنعوا بم وجنوه من كتب الإغريق لأقدمين أو كتب الفرس والهنود ورجعوا إلى كل مطنة من عطان التوسع في هذه البحوث فتساوى بحثهم عن كتب الطب ، وبحثهم عن كتب الهندسة والنجوم وسائر المعلومات ، ووضعوا لكتب فيما قرؤوه وترجموه فإد هو موسوعات تشمل « الوصفه » الهدية إلى جانب الوصفه العربية أو الفارسية أو اليونانية ، وإد هي مباحث تهذيب واستقصاء وبست مناجر أرباح .

ومن موسوعات لصب الإسلامية ف لم يوضع له نظير في الضحامة و التمهيد على قدر أسباب التمهيد في زمانه ، وقد ترجمت كلها إلى اللاتينية فنقلت هذه الصناعة بين أطباء أوربة من حال إلى حال ، ولم يضارع مؤلفي العربية فيها أحد من علماء الأوربيين إلى مطلع العصور الحديثة مع شغف الأوربيين أخيرًا بارعاء ملكة العلم واتهام الشرقيين بأنهم لا يطلون العم إلا بصناعة وأرباحها ، فعكست الآية هما وأصبح أصناء أوربة يقرعون كتب العربية ليستفيدوا منها في مزولة الصناعة وكسب الأموال ونشأ بها في ذلك جميعًا ف لم يكونوا من لوهجان

والقسوس الذين انقطعوا عن الدنيا فلا يحفرون بطلب المال من صناعه
الحب ولا غيرها من الصناعات .

فترجم كتاب القانون لابن سينا في القرن الثاني عشر وهو موسوعة
جمعت خلاصة ما وصل إليه الطب عند العرب والإغريق والهنود
و لسريان والأنباط . وترجم كتاب الحاوي للرازي سنة ١٢٧٩ وهو أكبر
تلاميذ الرازي بعد موته لأنه عمل لا يضطلع به الأفراد

وترجمت كتب ابن الهيثم في ذلك العصر فكان عليها معول الأوروبيين
اللاحقين جميعاً في البصريات .

وظهر من مرامج جامعة لوفان المحفوظة أن كتب الرازي وابن سينا
كانت هي المرجع المعول عليه عند أساتذة تلك الجامعة إلى أوائل القرن
السابع عشر ، وجاء المدد من الأندلس العربية فأمد أوربة بمرجعها
الأكبر في الجراحة وتجبير العظام ، وهو كتاب « التعريف لمن عجز عن
النصر » لأبي القاسم خلف بن العباس ، وقد طبع باللغة اللاتينية في
القرن الخامس عشر وكان قبل طبعه بروساً متداولة بين أئمة الصنعة
يعتمدون عليها في الأعمال الجراحية ولا سيما فتح المثانة وإخراج
الحصاة ، وقال العالم الطبيعي الكبير هالر في رواية جستاف لوبون
إن كتب أبي القاسم كانت مرجع الجراحين جميعاً بعد القرن الرابع
عشر لميلاد ، وقد ترك كنيئاً صغيراً عن الآلات الجراحية التي تستخدم
في العمليات على اختلافها مع توصيحتها بالأشكال وطرائق الاستخدام

وتكثرت المستشفيات باسم المارستانات في أنحاء الدولة الإسلامية
بعد القرن لثالث الهجري ، وكانت لهم طريقة لطيفة للتحقق من جودة
الهواء وصلاح الموقع لبناء المستشفيات تفتى عن الأساليب العلمية
التي انتعت في العصر الحاضر بعد كشف الجراثيم وإحاطة بوسائل
لتحليل فكانوا يعلقون اللحوم في مواضع مختلفة من المدينة في وقت
واحد ، فأنها أسرع إليه العفر اجتبوا مكانه و ختاروا المكان الذي
تأخر فيه عوارض العباد

وقد نسم العرب الصب في مرحلة من مراحله الطولية بين النظريات ، القديمة و النظريات الحديثة فكانت نظرية بقراط أن الاخلاط أربعة دم وبلغم وصفرأء وسودء ، وأن المرض هو اختلال النسبة بين هذه الاخلاط و لعلاج هو ردها إلى نسبتها الاولى ، وكانت نظرية حاليبوس أن الأمزجة أربعة وهي ، الحرارة و البرودة واليبوسة و الرطوبة ، فمن أصيب من قبح الحرارة فعلاجه البرودة ، ومن أصيب من قبح الرطوبة فعلاجه للبوسة وعلاج كل عرض من هذه الأعراض يقتصر على مد لقياس ، وكثر بين أطباء مدرسة الإسكندرية تنقاد هذه النظريات ولا سيما نظرية بقراط فأبصها إرازسترات Erasistratus ونصح لأتباعه بإهمالها وإيثار لملاحظة الدقيقة عليها ، وجاء بعدهم من اكفى فى التوصيف سؤال المريض والمقابلة بين حالته وأحوال المرضى الآخرين وتشحيل الطواهر والأعراض فى جميع الأحوال .

فلما تناول العرب الطب كانت هذه الصناعة فى لمرحلة بين تناسى لنظريات القديمة ونشأة النظريات الحديثة ، ولم تكن العلوم فى جمعتها قد وصلت إلى الطور الذى يسمح بابتكار هذه النظريات ، فاعتمدوا لملاحظة والتجربة ولم يعولوا كل التعويل على التزام النظريات أو ابتكار الجدد منها وتصرفوا فى العلاج فهم بتقيدوا برأى حاليبوس فى علاج البرودة بالحرارة أو الحرارة بالبرودة ، بل كان منهم من يعالج البرد بالبرد فى بعض الحالات أو يجمع بين الحمية والتبريد والترطيب كما كان يفعل صاعد بن شمر رئيس لمستشفى العسدى ببغداد وقد عرفوا العلاج بالعوض كما يؤخذ من كلامهم عن خصائص أعضاء الحيوان ، فإن الدميرى صاحب كتاب لحيوان يذكر منافع رئة لتغلب مثلاً أنها تدأوى الصدر لأن هذ الحيوان لا يهت إله عدا ، ويذكر غير ذلك من خصائص أعضاء احيوان

وسبقوا الإفرنج إلى وصف الجذام وشرح مرضى الحصى والحصبة ، وعلاج أمراض العين ، وحاموا حوى مذهب هروريد فى الطب البعسانى وعلاقته بالمسائل الجنسية على نحو تحريجى حقيق بأن يحتدى فى تقرير

لمعارف والمشاهدات فمن ذلك أن حظية للرشد تمصت في بعض
 لأيام ورفعت يدها فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها وعولجت بالتمريخ
 والدهن فلم تنتفع بهما ، فلما سئل جبرئيل بن بختيشوع قال للرشد
 «إن لم يسخط على أمير المؤمنين فيها عندي حية قال له الرشيد ما
 هي ؟ قال تخرج الحارية إلى ها هنا بحضرة الجميع حتى أعمر ما
 يُريده وتمهر على ولا تعجل بالسخط فأمر الرشيد بإحضار الحارية
 فخرجت ، فأسرع إليها حبرئيل وبكس رأسه وأمسك ذيلها كنه يريد أن
 يكشفها ، فأنزعجت الحارية وبسخت يدها إلى أسنن ذيلها » فقال
 جبرئيل قد برئت يا أمير المؤمنين ، ولما سئل في تعييل ذلك قال
 هذه الحارية انصب إلى أعضائها وقت المجامعة حلق رقيق بالحركة
 وانتشار الحرارة ولأجل أن تكون حركة لحما ع يكون بغتة جمعت
 الفضلة في بطون الأعصاب وما كان يحلها إلا حركة مثلها ، فاحتلت
 حتى أسطت حرارتها وحث الفضلة فبرئت»

ويروي عن ابن سينا أنه دعى بعبادة فني مريض لم يهد الأطباء إلى
 علته ، فأمر باستدعاء رجل من عرفاء المدينة وتناول يد الفنى يجس
 نبضها ويرقب وجهه ، وطلب من العريف أن يسرد أسماء الأحياء في
 المدينة فسررها حتى جاء ذكر حى منها فازداد نبض الفنى ، ثم سأل
 أن يذكر بيوت الحى فازداد نبض الفنى عند واحد منها ، فسأل عن فنى
 البيت من الفتيات ، وقال لأهل الفنى زوجته تلك الفتاة فهذا هو الدواء .

وعالج أطباء العرب الجنون علاج الأمراض الطبيعية ، وقد كان يسمى
 عند الإفرنج بالمرض الإلهي أو المرض الشيطاني لأنهم كانوا يحسبونه
 من إصابات الأرواح أو الشياطين ،

واقترنت بحوث العرب في الطب ببحوثهم في الكيمياء ، فاستفاد
 الأوربيون منهم كثيراً في هذا العلم لمسحذ ، وريب كانت فائدتهم
 من دروس العرب لكيمية أعظم مما استفادوه من دروسهم لطبية

فالقلاويات معروفة في مصطلحات الكيمياء الحديثة باسمها العربي Alkali وماء القصة وهو من أهم الحوامض المستخدمة في التجارب الكيميائية لم يظهر وصفه في كتب قبل كتب جابر بن حيان ، وهو صاحب الفضل فيما عرفه الأوروبيون عن ملح النوشادر وماء الذهب واليوتاس وزيت الراج ويعض السموم وقد ترجم له كتابه السبعون وكتاب تركيب الكيمياء إلى اللغة اللاتينية في أوائل القرن لثاني عشر ، وظلت كتبه عمدة في هذا العلم بين الأوروبيين إلى أواخر القرن السابع عشر فترجم كتابه الاستتمام إلى اللغة الفرنسية سنة ١٦٧٢

وبقت كتب الرازي كما نقلت كتب جابر بن حيان ، ومنها تلقى الأوروبيون تقسيم المواد الكيميائية إلى سامة وحيوانية ومعدنية وتقسيم المواد المعدنية أدق بتقسيم عرف في العصور الوسطى ، ولعل التاريخ الأدبي لم يتأثر بشيء من اكتشاف العرب في المعدييات كما تأثر بكشف البارود واستخدمه في هوائف الحصار وأسلحة القتال

وفي الطبيعيات أخرج العرب الثقل النوعي لكثير من العناصر والجواهر النفسية ، ونقلوا رأي الإغريق في الجاذبية وتعليل الثقل ، وحقوه أن الأجسام الثقيلة مجذوبة إلى أصلها في السماء ولكن لبيروني شك في ذلك ووجه إلى أن سينا سؤاله الذي يدل على مله إلى لقول بأن الأجسام كلها محدوبة إلى مركز الكرة الأرضية ، وذلك حيث يقول «ما الصحيح من قول القائلين ، أحدهم يقول إن الماء والأرض يتحركان إلى المركز والهواء والنار يتحركان من المركز ، وآخر يقول إن جميعها يتحرك نحو المركز ولكن الأثقل منها يسبق الأخف في الحركة إليه» .

وقد مهدت هذه الآراء سبيل نيوتن إلى كشف قانون الجاذبية وتعليل الثقل على أساس العلمي الحديث ،

وللبيروني أيضا فضل السبق إلى درس السوائل في عيون الأرض ومرتفعات الجبال وما تحكم به حركاتها في حالي التوازن والارتفاع ، ومن رواد هذه المباحث في اللغة العربية أبناء موسى بن شاكر أصحاب

كتاب الحبل الذي يعد أصلا من أصول «اميكانكا» قبل تطورها الأخير
في عصر الآلات .

وعى سداجة البحوث التي انتهى إليها عم التاريخ الطبيعى قبل
لقرن لثامن عشر كبت مؤلفات العرب خير المراجع فى هذه العلوم
للأوربيين وغير لأوربيين ، فبهم جمعوا لمتفرق من المعلومات القديمة
عن الحيون والنبات وزدو عليه وتوسعوا فيه فنقلوا عن الهند
والكنداء واليونان ولأثبط ، و عتمدوا على المشاهدة فى بلادهم وغير
بلادهم كما فعل ضياء الدين المائقى ، المعروف دين ليصر ، فقد ولد
بمالقة وساح فى أنحاء العالم الإسلامى ووصل إلى أقصى بلاد الروم
للبحث عن الأعشاب وأصناف النبات ، وعينه الكامل الأيوبي رئيس
للعشايين بالدير المصرية وهم يقابلون فى عصره هذا علماء النبات
وعلماء الصيدلة فى وقت واحد ، وألف كتاب «الأبوية المفردة» ،
فاستوعب فيه صفوة المعلومات التي أتركها علم زمانه فى هذه البحوث

جاء فى كتاب «لحضاره الأوربية سباسة واجتماعية وثقافية»
لمؤلفيه أساتذه أيفلسفة جيمس وستقار توسون وفرانكان شارلر نام
وفان نوستراندا «فى خلال قرين نقل إلى العربية كل ما خلقه الإغريق
من التراث العلمى على التقريب وأصبحت بعدد ولقاهرة والقروان
وفرطية مراكز لامعة لدراسة العلم وتقينه وأحدث المعرفة بهذه
الثقافة الإغريقية العربية تسريب إلى أوربة العربية فى أواخر القرن
لحادى عشر والقرن الثانى عشر

ولم يكن تسريبها من أثر لغزوات الصليبية كما سبق إلى الخطر ، ولكنه
حاء من طريق صقلية إلى إيطاليا ومن إسبانيا المحددة إلى إسبانيا
المسيحية ثم إلى فرنسا وتسابق ارحال من دوى العقول اليقضى إلى
بلادهم وطبيلة لتعلم اللغة لعربية ودراسة لعلوم العربية ، والعجب أن
معظم هؤلاء لرحال كانوا من الانجليز^(١) مثل أدسلارد ،وف بات ودانال

١ - حافظ على التسمية لإندائره لأنها شائعة لاسما من يعرف بها ،صحيحها بهذه الصيغة

أوف مورلى وروجر أوف هيرفورد وإسكندر مكوام ، وكانت أوربة الغربية فى
المقرون الوسطى وقضى بعض الطلاب سنين عدة
تترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية ... وترجم جيوارد أوف
كريمونا المحتوفى سنة ١١٨٧ فى الثالثة واسبعين من عمره واحداً وسبعين
كتاباً مختلفاً من هذه الكتب ، وقدره فى مهمة لإنتاج أفلاطون أوف تيفولى
وعلى هذا النحو كان أوربة قد استولت فى مستهل القرن الثالث عشر
على محصول العلم الإغريقى والعربى حداً غير . وأصبح تدريس العلم فى
لجامعات الحديثة من الأمور المقررة المتفق عليها ، وكان أعظم علماء ذلك
العصر لإنجليزى الفرنسيسكانى روجر باكون (١٢١٤ - ١٢٩٢) وهو لا
يقصر فى عظمته عن شأن البرنس الكبير ، وكلاهما قد نولى التدريس
فى جامعة باريس ، ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى ظهرت مجموعة
هذه المعارف فى سفر ضخيم من تصنيف فيسنت أوف بوفيس سماه
مراة الطبيعة ، وحوى فيه كل ما وسعته المعرفة البشرية فى ذلك الحبل
من طب وطواهر كوية وفلك وجغرافية وظواهر جوية ، وكلام عن طبقات
الأرض والمعادن والنبات والحياء والتشريح . إلخ .

* * *

على أن بجانب اسمهم من أثر هذه الحوسوعات الثقافية فى أوربة لا
يتوقف على تعدد المعلومات . كم «معلومة» بلغت وكم معلومة أخذها
لعرب أو أخذها منهم لأوربيين ، وإنما المهم أن الأوربيين سألوا
مشعل العلم من أيدي العرب فاستضاء وأ به بعد ظلمة وبلغوا به بعد ذلك
ما بلغوه من هذا الصياء العميم الذى أبكشت به أحدث العلوم ، ولو لم
يحص العرب ذلك المشعل شرقاً وغرباً لكان من أعسر الأمور أن يقدح
لأوربيين نوره من جديد ، وإاء أفلحوا فى هداه معصراه فى ثلاثة قرون
أن يقف نون الشئوا لدى انتهى إليه جهد لإنسان فى عشرات لقرن

الجغرافيا والفلك والرياضية

يعتبر بطليموس صاحب «المجسطى» معلم الجغرافيه الأول في العصور القديمة ، لأن اسمه كان أشهر الأسماء التي أداها العرب في أوربة بعد مولده بعدة قرون

ومن الخطأ أن يظن أن علم الجغرافية عزم بوباني في أصوله ومبتكراته لاشتغاره باسم مؤلف من كلمين يونانيتين ، لأن بطليموس نفسه قد اقتبس كثيراً من المصريين كما اقتبس كثيراً من الكنعانيين ، وقد سبقه من اليونان جغرافيون وسياح اعتمدوا على أهل مصر وببل فيم أثبتوه من الأصول الجغرافية التقليدية ، ومنها الكلام عن النيل وأثيوبية وتقسيم الدنيا إلى سبعة أقاليم ، ويبدو على حد التسبيع طبع البابليين الذين تحدثوا قديماً عن الكواكب السبعة والأيام السبعة وجعلوا التسبيع سمة من سمات الخليقة الإلهية ،

فبطليموس نشأ في الإسكندرية واقتبس فيها ما توارثه المصريون من الأرصاد والتقويم وأخبار الرحلات وقصص السياح على عهد القراعنة عما طرقوه من البرور والبحور ، وقد بلغ من شيوع هذه الرحلات بين الإغريق الأقدمين أنها تطرقت إلى إلياذة والوديسي من شعر هومر كما تطرقت إلى شعر غيره من فحول الشعراء

والصلة لا شك فيها بين علم المصريين الأقدمين وعلم الإسكندريين راجت المدرسة الجغرافية في الإسكندرية رواجاً لم تبلغه في أرض الرومان ولا اليونان ، فشمهر فيه بوليبيوس وسندونيوس وثيوفان ومثلي . كم وقد إليها استرايون قبل بطليموس بنحو مائة سنة ، وهذا عدا الفلكيين الذين كان بهم من البحث الجغرافي نصيب

ويعزو بطليموس فضلاً كبيراً إلى كتاب مارنيوس لصوري الذي دون في كتابه خبرة الكنعانيين وخبرة المصريين ، واعتمد عليه بطليموس كثيراً من تقسيم خطوط العرض وخطوط الطول

والواقع الذي تتفق عليه آراء المؤرخين أن أوربة لم تطلع على جغرافية بطليموس قبل انتقالها إليها من طريق الثقافة العربية ، وأنها وصلت إلى الأوروبيين مزيدة منقحة بما أضافه إليها الجغرافيون المسلمون . ولا سيما البيروني في رحلاته إلى آسيا الشرقية واخترع ابن يونس المصري في القرن التاسع لميلاد الرقاص ثم توالى بعده من ضبط حركاته وانتظم دذباته

وليس أرجح من الأقوال التي ترجع بتاريخ الإبرة المغناطيسية إلى الملاحين العرب والمسلمين ، لأن الأقوال التي ترجع بهم إلى مخترعات الصين يشوبها كثير من الشك ، ومثلها الأقوال التي ترددها بين الرومان واليونان ، ولم يكن باب الاقتباس مغلقاً بين الصين والعرب في فنون الملاحة ، إذ كانت السفن تعدو وتروح رمزاً طويلاً قبل الإسلام بين الحيرة العربية وموانئ الصين ، وقد أثبت العلامة حوسنف لويدون نسبة الإبرة إلى العرب في كتابه عن الحضارة العربية ، وهو إثبات له قيمته في بانه ، فإن أعورته أدلة ، لجزم القاطع لم تعوره أدلة الترحيح

وقد شتهر في المشرق الإسلامي جغرافيون سررون أضفوا إلى اعلم أحسن التحقيقات من طريق الأرصاد الفلكية ومشاهد الرحلات وتمحيص الروايات ، ولكن الأندلس هي التي جمعت صفوة هذه المعلومات ونشاعتها في الأقطار الأوربية التي تجاورها . وكان للشريف الإدريسي خاصة أعظم الفضل في جمع هذا العمل وتحديده وإحصاء العناية به من نوى الشأن في زمانه . فلما أراد روجر الثاني ملك صقلية ، سورماني في القرن الثاني عشر أن يسوفي معلومات عصره الجغرافية لم يجد من يعتمد عليه في ذلك غير الشريف الإدريسي الذي ولد في سبته ودرس في قرصه وتطاييرت شهرته في بلاد الحضارة الإسلامية والمسيحية فوضع كتابه «نزهة لمشترك في احفر في الاما» ، وصنع به الملت كرة فضية تمثل كرة الأرض زيتها أربعمئة رطل رومي ببجدها مثالا لم يشته من معالم الكرة الأرضية ولا يعرف ان أحد سبق الإدريسي إلى تدن الحقيقة عن منابع انيل العليا كما حفظت في الجرائط التي بقيت في بعض المتاحف لأوربة ، ومنها

خريطة محفوظة بمتحف سان مرتين الفرنسي ترسم البيل آتيا من بحيرات إلى جنوب خط الاستواء ، بعد أن تخط الجغرافيون في وصف منابعه ، وتعليل قبضانه منذ أيام هيرودوت الملقب بأبي التاريخ .

ومن الخرائط المرسومة والآراء النظرية التي نقلت عن لعرب تلقى كولمبس صورته عن الكرة الأرضية ، وتخل أن الأرض كثمرة الكمثرى المستطيلة ترتفع قمته في الهند وترتفع بها قمة أخرى مقسة بها هي مكن آخر يشبه إقليم الهند بمناخه وثمراته ومحصول أرضه ومائه ، وكانت الخريطة انى أوجت إليه هذه لفكرة مباشرة خريطة الكريستل بطرس الإيلي التي سماها «صورة الدنيا» Imago mundi واعتمد فيها على المصادر العربية ونشرها في أوائل القرن الخامس عشر قبل رحلة كولمبس نحو ثمانين سنة وهو فضل يحسب للعرب في كشف العالم الجديد .

ولقد كانت آراء البيروني وصروياته في علمي الجغرافية والفلك شائعة بين الأوربيين المهندسين ومما نقله البيروني عن أهل الهند « أن على ترابع خط الاستواء أربعة مواضع هي حمكوت الشرقى ولروم الغربى وكند لذى هو القبة والمقطر لها ، فززم من كلامهم أن العمارة في النصف الشمالى بأسره » ، ثم قال : « وأما اليونان فقد انقطع العمران من جانبهم بحر أوقيانوس فلما لم يأتهم خبر إلا من جزائر فيه غير بعيدة عن الساحل ولم يتجاوز المخبرون عن الشرق ما يقارب نصف الدور جعلوا العمارة في أحد اربعين الشماليين ، لا أن ذلك موجب أمر طبعى همزاج الهواء الواحد لا يتباين ولكي أمثاله من المعارف موكل إلى الخبر من جانب الثقة ، فكان الربع دون النصف هو ظاهر الأمر ، والأولى أن يؤخذ به إلى أن يرد دليل لغيره » .

ومعنى هذا الكلام الواضح إن موجب العقل يقضى بوجود جانب مغموه هي الجانب العربى من لكرة الأرضية ولكن لا يقصع بوجوده إلا بعد المشاهدة وتؤثر الخبر من الثقافات وهذه هي الحقيقة لتي اعتمد عليها كولمبس فافتحم بحر الظلمات على رجاء تحقيق الفكرة المنطقية برؤية العيان ولو بقى الراى الغائب على أهل أوربة عن تسطيح الأرض كما كان

قبل شموع كتب الجغرافيين من العرب - مع إنكار الكهيسة للقول باستدارتها ونورانها - لكان من المتعذر جداً أن يستنح في ذهن كولمبس خاصر السفر إلى العرب للوصول إلى الأقطار الآسيوية ، ولكن العرب أشاعوا هذه الحقيقة في أهم الكتب الجغرافية التي ألفوها ، فكتب ابن حرد ذمة المتوفى سنة ٨٨٥ للميلاد «أن الأرض مدورة كدويرة لكرة موضوعة في حوف الفلك كالمحة في جوف البيضة» وقال ابن رسة المتوفى سنة ٩٠٢ «إن الله عز وجل وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أحوف بواراً و لأرض مستديرة أيضاً كالكرة مصمتة في حوف الفلك» ، وأتى بالبراهين على ذلك فقال «والدليل على ذلك أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل يرى طلوعها على المواضع المشرقة قبل عيوبها عن المقربة ويتبين ذلك من الأحداث التي تعرض في العلو فإنه يرى وقت الحدث الواحد مختلفاً في نواحي الأرض مثل كسوف القمر فإنه إذا رصد في بلد من متباعدين بين المشرق والمغرب فوجد وقت كسوفه في البلد الشرقي منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلاً أقول وحد ذلك الوقت في البلد العربي على أقل من ثلاث ساعات بقدر المسافة بين البلدين إلخ» وقال المسعودي المتوفى سنة ٩٥٦ «جعل الله عز وجل الفلك الأعلى وهو فلك الاستواء وما شتمل عليه من طبائع التدوير ، فأولها كرة الأرض يحيط بها قلك القمر ويحيط بقلك القمر فلك عطارد إلخ» وقال المسعودي في مروج الذهب عن الشمس «إذا عابت في هذه الجزر - أي جزائر الأقباطوس - كان طلوعها في أقصى المشرق وذلك نصف دائرة الأرض»

وقد تولى العلماء عبر الجغرافيين تقرير هذه الحقيقة بالأدلة الفلسفة كما فعل ابن سينا في جوابه عن سؤال أبي حسين أحمد السهلي عن علة قيام لأرض في الفضاء وثبات الأجسام عليها حيث قال «... ينبغي حينئذ ضرورة أن تكون جميع الأجسام الثقالة حيواناً كانت أو غير حيوان - تميل بطبعها وتنحذب من جميع الجوانب كلها إلى وسط

العلم» وألم فى ختم الرسالة بقول الأقدمين فقال «ذهبت طوائف من لقدماء إلى آراء أخرى عبر ما سبق ، فمن أصحاب فيثاغورث من قال إن الأرض متحركة دائمة على الاستدارة ، ومنهم من قال إنها هابطة إلى أسفل ، وغيرهم من ذهب إلى سكونها»

فشروع العلم باستدارة الأرض بفصل تداوله فى الكتب العربية هو الخطوة الأولى التى تسبق كل خطوة فى طريق كولمبس ومن صدق بدعوته من أبناء زمانه ، ولولا هذه الخطوة كان أهل أوربة الشمالية أولى بمكشف الدنيا الجديدة لأنهم أقرب إليها ، ولهم دراية بالملاحة كدرية أبناء الشواطئ الجنوبية

على أننا قرأنا رأياً لبعض المشتغلين باللغة والتاريخ عندما يؤكد فيه سبق العرب إلى كشف الدنيا الجديدة بأدلة لغوية تاريخية يعتمد عليها ، وأشهر من قال بذلك الأب أمستاس الكرملى صاحب البحوث الطويلة فى مشتقت ، الألفاظ وتاريخها ، فإنه يشير إلى تيار الخليج الحار فى المحيط الأطلسى فيقول :

«سبق العرب سائر الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصه ، وإلى حركته من المكسيك إلى أرنلندة ومن هذه إلى تلك ، فكانوا يركبونه من موطن إلى موطن ، بحيث كانوا يدهشون سكان حرر العاش أى جزر القصدير وأهل جزيرة رلندة فكانوا إذا ضعنوا إلى أنحاء المكسيك مكث بعضهم فيها وعاد أهليون منهم إلى بلادهم راكبين من ذلك التيار المبارك مسبحين ربهم مباركين مسلمهم ويعرف أنهم كانوا يقيمون فى لدير النبى عرفت بعد ذلك بالمكسيك من أسماء الحيوانات التى سموها بها وهى أسماء تعرف بها إلى اليوم لكن لا يفقه أهلها معانيها ولا علماء الغرب الذين اتخذوها ...»

إلى أن يقول «وأما بعض هذه الألفاظ فمنها التمسح المسمى عندهم Aligator فإنهم لم يعرفوا من أى لغة هى إنما يقولون إنها بلسان البلاد التى تعيش فيها ولم يربطوا على هذا القدر أما أنها من لغتنا المصرية فم لا شك فيه لوجود العمامة والكومية فى رأسها أى الألف واللام وهى العمرة التى يمتاز بها القحطاني نون غيره ..»

وقد كنا نود أن مستند القول بوصول العرب إلى بنية أقوى من هذه البنية لأن الواقع أن أصل تسمية لتمساح بهذا الاسم الإسباني معروف ، إذ هو مأخوذ من El lagarto الإسبانية المصحفة من lacerata اللاتينية بمعنى فصيلة الضب والعظاية ، وإلى اللاتينية يرجع كلمة lizard الإنجليزية التي يسمى بها ذلك الحيوان وكلتا هاتين قريب من قريب

إلا أننا مع هذا لا نوافق الأب أنستاس الكرسي على أن كولمبس كان مبدئاً بالفضل في معرفة لعالم الحديد لمرجع من القرن الخامس للمسيح وذلك ما يؤخذ من مقال لأب حيث قال «وأول من انتبه لهذا الأمر راهب اسمه برندان السائح البحار لمولود سنة ٤٨٢م وهو من أصر شريف يرتقى إلى ملك أيرلندة . ففي عام ٥٤٥ م بهياً لتحقيق ما يختلج في صدره من الأمانى مع أربعة عشر رهباً من مفتحى الأهوال فابتنوا مركباً كبيراً ليستكشفوا ما هنالك . وفي سنة ٥٥٢ بزل برندان ورفاقه على ساحة أميركة ولا جرم أن كلبس كان واقعاً أتم الوقوف على خبر رحلة برندان فمكن من أن يفتح الصك فرديند والملكة إيرابنة بأن يوافقا على هذه الرحلة للبحث عن العالم الجديد . »

فقصة برندان هذه من الأقاصيص التي يرتاب فيها الثقاة ولا يجدون لها أصلاً مكتوباً قبل القرن الحادى عشر للمسيح ، وهى التى يصح أن يقال إنها مقتبسة من المصادر العربية لأنها تحكى لنا حكاية الحوت الكبير الذى برل عليه المسافرين وضنوه جريرة راسية فتحرك بهم وأوشك أن يفرقهم ، وليس فى القصة وصف للقارة الجديدة بل وصفها كله خيال عن نعيم الأبرار لموعود فى أرض الصالحين والقديسين .

وقد تواترت أقاصيص الجغرافيين العرب عن المعمرين الذين طرخوا بأنفسهم فى بحر الخلمات فهلك منهم من هلك وعاد منهم من عاد بأخضر تشبه الأساير ولا ثبوت عليها مظنة الثقة والاعتماد ومن ذلك إشارة امسعودى فى مروج الذهب إلى أخير « من غرر وخطر بنفسه فى ركوبه ، ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوا »

ومنه وصف الإدريسي في «نزهة المشتاق» حيث يقول «إنهم وصوا - من لشبوية بعد ثنى عشر يوماً - إلى بحر عيظ الموج كدر الروائح كثير الفروش قليل الضوء فأيقنوا بالثلف ، ثم قربوا قلاعهم في اليد لأخرى وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثنى عشر يوماً فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل وهي سرحة لا رعى لها ولا ناظرة إيسها ، فقصصوا احزيرة منزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجئوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها »

إلى أن يقول «فاعتقلوا فيها في بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم في ليوم الرابع رجب يتكلم باللسان العربى فسألهم عن حالهم وفيما جاءوا وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً وأعلمهم أنه ترجمان الملك . فما عم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان خير القوم أن يبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر وأنهم جروا في عرضه شهر إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا في غير حاجة ولا فائدة تجدى . وهذه وما جرى مجراها أقاصيص ملفقة تحيط بها لشكوك ولا سيما قول الرواة إن المغررين وجدوا في الحزيرة «رحالا شقراً زعراً شعوراً رؤسهم سبلة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب »

ولو وصل أولئك المغررون إلى القارة الجديدة لرأوا هناك ما رآه كولمبس وعدوا بحر أصبح من هذه الأوصاف ، وليس فيها جمبعاً وما يزيدنا على النظر بأن رواداً من العرب حاولوا استصلاح بحر الظلمات فلم يصلوا عنه إلى نهاية ، وهو ظن نستطيع أن نذهب إليه ، بل نجزم به ، بغير حاجة إلى تلك الأقاصيص .

وأقوى من هذا التقدير دلالة على سبق العرب إلى انبياد العالم الجديد أن كولمبس عاد من أمريكا بذهب مخوط بالحاس على النحو الذي يخط به أهل عامة لأفريقية وبالنسبة التي يلاحظونها في هذا الخيط ، وأن لغات لهندو ، الحمر تشمل على كلمات أوربية وأقدم منها الكلمات العربية التي سخلها مع بعض البصحيف والحريف ولكن قرينة لذهب أموى وأقرب

إلى الاحتمال ، لأن تحقيق لزمن الذي تسربت فيه الكلمات المزعومة أمر عسير لمراجع إذ كانت الرحلات قد توالى بعد كشف أمريكا بين لشواصي الأمريكية في أيام رواج النخاسة وختلاط النخاسين والعبيد بمن يتكلمون العربية في أفريقيا العربية ، وليس من لسهل إثبات تورخ لألفاظ في لغات كلغات اليهود لحر لا تعتمد على الكتابة والتسجيل

وأجدر بنا أن نقول كم قال البيروني إن الأمر موكل إلى الخبر من جانب الثقة ، فمن فضل العرب القائم على الحقائق في المعارف الجغرافية بغيرهم عن كل فضل قائم على الظنون

وليس للجغرافية - بعد - من عماد تقوم عليه غير السياحة والاستقراء والأرصاد الفلكية ، وفي كل أولئك فضل ثبت لعرب والمسلمين غير منسى ولا منكور .

فقد كانت السياحة فيما بين القرن العاشر والقرن السادس عشر فناً إسلامياً من فنون أهل المغرب على الخصوص وهم قنوة الأوربيين في هذه الشؤون ومن سيح المسلمين المشهورين أبو عبيد الله البكري الذي ولد في مرسية وألف كتابي «معجم ما استعجم» ، و«المسالك والممالك» ، وتوفي في أواخر القرن الحادي عشر لميلاد ، ومنهم لشريف الإدريسي المتقدم ذكره ، ومنهم محمد بن عبد الرحيم المارني لذي ولد في غرناطة وألف «حبة الأذهان في عجائب البلدان» وتوفي في القرن الثاني عشر ، ومنهم ابن جبير الذي ولد في بلنسية قبل منتصف لقرن الثاني عشر وكتب رحلته المتداولة بين قراء العربية ، ومنهم بن بطوطة صاحب «تحفة النظار في غرائب الأمصار» أكبر لرحالين في القرن الرابع عشر على الإطلاق

وهؤلاء غير الرحالين الشرقيين من مثل المسعودي وابن حوقل وياقوت الحموي والبيروني وعشرات آخرين لم يشتهروا هذه الشهرة ولم يتركوا بعدهم من المطولات مثل ما ترك هؤلاء

ويدل على أثر المسلمين في الملاحظة تلك الكلمات التي لا تزال محفوظة في لغات الأوربيين بما يشبه حروفها العربية ، مثل Tare من

طرح السفينة ، و Felouque من الفلك ، و Calfata من القلطة ،
و Amiral من أمير البحر ، Arsenal من دار الصناعة ، risk بمعنى
المغامرة في طلب المعاش من كلمات رزق ، Avala من كلمة حوالة
و Avaare من كلمة عوار ، Wissil الألمانية من كلمة وصل و Calibre من
كلمة قالب ، وغير ذلك كثير ولا سيما في كلام أهل الأندلس والبرتغال

وقد كشفت على شواطئ البحر المتوسط وفي البلاد الأوربية لشمالية
أحافير شتى ترجع إلى القرون الوسطى منها نقود إسلامية وهي تدل
على اتصال التجارة الشرقية بأطراف أوربة في الشمال وعلى دخول تلك
الأقطار في نطاق الجغرافية الإسلامية بالمعاملة أو العنان

وإذا كان وصول العرب إلى القارة الأمريكية قبل كولمبس مقصود به
على سبيل التحقيق فمن المحقق أنهم وصلوا في المحيط الأطلسي إلى
أمد بعيد وانتهوا إلى جزيرة الأزور وكشفوا سواحلها إلى أقصى الجنوب
أما المعارف الجغرافية من صرب الأرصاء ، الفلكية فمن مآثر العرب
فيها أنهم قاسوا محيط الكرة الأرضية في عهد المأمون ثم قاسوه على
طريقة البيروني بحديث ارتفاع الجبال بالدقائق والدرجات ، وأهم
صحبوا خطوط الصول والعرض وحققوا الاعتدال الشمسي وضبطوا
التقويم وأحكموا الأزياع ، قال جوستاف لوبون في كتابه عن حضارة
العرب إن التقويم السنوي الذي أصبح في عهد السلطان ملك شاه
أصبح من التقويم العريغوري الذي أنعمه الأوروبيون بعد مئتي سنة ، لأن
التقويم العريغوري يقع فيه حصاً ثلاثة أيام في كل عشرة آلاف سنة ولا
يقع بحسب التقويم العربي غير خط يومين ، وأهم عرقوا مقياس خط
النهار قبل الأوروبيين بألف سنة وأنهم كشفوا الاختلاف الثالث في سير
القمر الذي أنفق بطليموس ، وأنهم هم الذين عيّنوا الأماكن على
الخرائط واستركوا كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها الإغريق في درجات
العرض والطول ، ومنها أخطاء بطليموس ، الكبير ، وكانت أخطاؤهم
لا تتجاوز الدقائق حيث تتجاوزها أخطاء الإغريق إلى الساعات

ولا حاجة إلى استقصاء طويل هي عم الفلك لإقرار فضل العرب فيه على الأمم الأوربية، فإن الأسماء العربية بقية بلفظها في المعجمات الفلكية الأوربية سواء في أسماء الكواكب والنجوم أو أسماء المدارات والمصطاحات ، ومن مئات هذه المفردات نكتفي بالقليل للدلالة على الكثير كالطرف Altaref وكرسی الحوزاء Cursa والكف Caph والأرب Arnab ولعرقوب Arkab والسمت Azimuth وأدحى النعام Azha ولبطين Botem وزبانتى العقرب Zuben Hakrab والوزن Wezn والنسر الواقع Wega ولساهر Suros وصدر لدجاجة Sadr وسعد السعود Sadalsud ورجل الجبار Rigel والزرق Zaurek وقرن الثور Tauri والراعى Eitan والذئب Denob وأمثال هذه الأسماء المحفوظة بألفاظها كثير غير ما ترجموه بالمعنى نون الألفاظ ،

* * *

والعلاقة بين الفلك والعلوم الرياضية توحز لنا البیان عن خط الثقافة العربية من الرياضيات في جملتها وقد تغنى لعنوين هنا عن التفصيلات التي تلتبس في مطولات هذا الباب ، فإن الجبر يعرف باسمه العربي في جميع اللغات الأوربية لأن الإغريق وقفوا به عند القواعد الأولى التي أثبتها ديوفانتس Diophantus الإغريقى السكندري في القرن الثالث لميلاد ، وقد لخص جوستان لوبيون تجسدهاتهم في هذه العلوم فقال إنهم أدخلوا الخط الممارس إلى حساب لمثلثات وحسب المعادلات المكعبة وقد توسعوا في مبحث المخروطات وأحسوا الجيوب محل الأوتار وأنشأوا لنظريات الأساسية لحل مثلثات الأضلاع ودرى عن بعض الثقافات أن تجديرات العرب في هذه المسائل وأمثالها كانت ثورة علمية بعيدة الآثار ،

وليس بالشرقيين غو في القول إذا ارتفعوا ببعض الرياضيين الإسلاميين إلى الذروة العليا في علم لرياضة جمعاء . فإن الأستاذ كارل ساخو الذى كان أستاذاً للغات السامية في جامعة فيينا بقول عن ابيروني إنه أعظم العقول لتي ظهرت في العلم

والأستاذ لالاند ، لعلكى الفرنسى لمشهور فى القرن اثنامن عشر يقول عن
البنائى إنه واحد من عشرين رياضياً ظهوروا فى لدلم القديم والعالم الحديث
ومن تصحيح القول فى نشأة علوم الرياضية أن نغى منه النغى الذى
يبدأوله بعض الأوربيين لمحدثين ليؤثروا الإعريق وحدهم بالفضل فى
ابتداع لهندسة وتطبيق لرياضة لنظرية على الفلك وسائر القنون فقد
بلغت العصبية «الأوربية» ببعضهم أن يعزوا إلى طاليس فضل الإنباء
بالكسوف قبل وقوعه ويسو الحقائق لحسية التى تدل على سبق
المصريين والبابيين فى هذه لدراسات ، ومن هؤلاء من يكتب عن تاريخ
الفلسفة الإغريقية قديمها وحديثها - كجون برنيت Barnet - أو يكتب
خاصة عن تريح هذه الفلسفة من طاليس إلى أفلاطون ويعفل عم كتبه
أفلاطون نفسه فى نشأة لرياضيات ، لأن أفلاطون قرر فى حوار
فيدراس أن توت الإله المصرى هو الذى اخترع لحساب والهندسة
والفلك وكتابة الحروف وكان ينعى على قومه أنهم لا يعنون بهذه العلوم
عناية المصريين كما جاء فى الفصل السابع من قوائمه حيث قال :
«إن الأحرار عليهم أن يتعلموا من هذه المسائل بمقدار ما يبذل للتعليم
فى مصر لعدد كبير من الأطفال حتى يتعلمون لكتابة» وإن الأطفال
المصريين يتدرجون من تعلم الجمع والطرح والقسمة إلى التمرينات فى
قياس الأطوال والسطوح ول مكعبات ، ثم ختم الكلام الذى ورد فى ذلك
الحوار على لسان الأثينى أسفاً لذلك الجهل المحجل المضحك الذى
أطبق على سائر بنى الإنسان فى هذه الدراسات

وقد كان إقليدس - الذى بنسب إلى صور - يتلقى العلم على تلاميذ
أفلاطون فى أثينا ويسمع منهم أمثال هذا الكلام عن شغف الحكماء
المصريين بالدراسات الرياضية وسعة المجال لدى بدرسور فيه
لرياضيات على لإحمال ، فلا جرم يرحل بعد ذلك إلى الإسكندرية ،
وينبغ بعد ذلك فى هندسته نبوغاً لم يسجل لأحد من الأثينيين الذين
اقتصروا على معارف بلادهم فى هذا الباب ، ولم يرحلوا عنها إلى مصر
أو بين النهرين.

طاليس نفسه قد حضر إلى مصر وقال هيرونيمنس Heronimus الرومى :
« إنه لم يتعلم قط إلا فى أيام رحلته إلى مصر واختلاطه هناك بالكهان » .
وهيرودوت هو الذى روى لنا قصة إنباء طاليس بالكسوف قبل وقوعه
وهو الذى روى كذلك أن الإغريق أخذوا آلة قياس الأسفل الشمسى
والاعتدالين بالظلام من البابيين ، وبوشرت الأقول فى كتب لتاريخ
لرياضى بأن البابيين قد رصدوا الكسوف وحسبوا له دورة تتم بعد
مائتين وثلاث وعشرين دورة قمرية ، أى فى ثمانى عشرة سنة وأحد
عشر يوماً وطبقوا ذلك الحساب من أرمنة مجهولة قبل كل رصد منسوب
إلى الإغريق

فليس مما يليق بالعالم أن يكر الحقيقة نعصباً لجس من الأجناس .
لأن العلم الصحيح وحب الحقيقة لا يعترقان ومهما يكن من علو الغالين
فى تقويم حصة الإغريق من لراث الرياضى فالحقيقة التى لا تقبل
النزاع أنهم أخذوا من الشرق قبل أن يأخذ منهم الشرق ، وأن أبناء هذا
الشرق هم الذين أعطوا الأوربيين وديعة تلك الحصة كبر أو صغرت .
وزادوا عليها ما زانوه بالتفتيح والابتكار

الآداب

كتب الأستاذ جب Gibb في مجموعة نراث لإسلام فصلا ممتعاً عن أثر العرب في الآداب لأوربية استشهد فيه بكلمة للأستاذ ماكيل Mackail من محاضراته على اشعر قال فيها «إن أوربة مدييه لبلاد العربية بنزعتها المجازية الحماسية Romance كما هي مدينه بعقيدتها لبلاد اليهودية» .

«واننا - يعنى الأوربيين - مديون لبطحاء العرب وسورية بمعظم القوى الحيوية الدقة أو بجميع تلك القوى - التى جعلت القرون الوسطى مخالفة فى الروح والخيال سعالم الذى كان تحكمه رومه» .

ولا يقرأ الأستاذ جب كل هذا التعميم والإطلاق ولكنه لا يطله كل الإبطال ولا منفى لأثر الذى تركه الأدب العربى فى شعر الأوربيين ونثرهم منذ القرن الثالث عشر إلى القرون الحديثة ، وإن كان يرجح أن هذا الأثر قد تسرب من طريق لإحياء الرواية الإنسانية بين المسلمين الذين كانوا يتكلمون العربية ويعصر اللغات الأوربية وبين شعراء هوسا الجنوبيين ممن لم تثبت معرفتهم بالعربية على التحقيق

والذى نعتقده على أية حال أن العقل يأتى كل الإباء أن قيام الأدب العربى فى الأندلس يذهب من صفحة لتاريخ الأوربي بغير أثر مباشر على الأذواق والأفكار ولموضوعات والنواعى النفسية والأساليب اللغوية التى تعتمد عنها الآداب .

وبزينا اعتقاداً لذلك أن أوربة كانت تتلقى ثار الثقافة العربية من ثلاث جهات متلاحقة فى القرون الوسطى ، أولاها جهة القوافل التجارية التى كانت تغدو ونروح بين آسيا وأوربة الشرقية والشمالية من صربى بحر الحر أو طريق القسطنطينية ، وربما كانت هذه هى الطريق التى وصلت منها أطراف الأخبار الإسلامية إلى بلاد إسكندرية

والجهة الثانية هي جهة المواطن التي احتلها الصليبيون وعاشوا فيها زعمًا طويلًا بين سورية ومصر وسائر الأقطار الإسلامية .

والجهة الثالثة هي جهة الأندلس وصقلية وغيرهما من البلاد التي قامت فيها نول لمسمير وانتشر فيها . لمتكلمون باللغة العربية

وقد اقترنت بموضوعات لأدب العرسي أسماء طائفة من عذرة الشعر في أوربة بأسرها خلال القرن الرابع عشر وما بعده ، وثبتت الصلة بينهم بين الثقافة العربية على وجه لا يقبل التشكك أو لا يسمح بالإنكار

ونخص منهم بالذكر بوكاشيو ودانتى وبترارك الإيطاليين وشوسر الإنجليزي . وسوفانيز الإسباني ، وإلهم يرجع الأثر البارز في تجديد الآداب القديمة بتلك البلاد

ففي سنة ١٣٤٩ كتب بوكاشيو Boccaccio حكاياه التي سماها «الصباحات العشرة» وحذا فيها حذو «الليالي العربية» أو ألف ليلة وليلة التي كانت يومئذ في نور البشر وإضائة بين مصر والشام ، وقد ضمنها مائة حكية من مزار حكايات ألف ليلة وليلة وأسندها إلى سبع من السيدات وثلاثة من الرجال اعزلوا المدينة في بعض الضواحي قراراً من اطاعون وفرضوا على كل منهم حكاية يقصها على أصحابه في كل صباح تزجية لسفراغ . وقد ملأ هذه الحكايات أقطر أوربة واقتبس منها شكسبير موضوع مسرحيته «العبرة بالخواتيم» All is Well That ends Well كما اقتبس منها لسفغ الألفامي مسرحيته «مأثر الحكيم»

وكان «شوسر» إمام الشعر أحدث في اللغة الإنجليزية أكبر المعنيسين منه في زمانه ، لأنه لقبه حين زار إيطاليا ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم «قصص كانتوري» وأدارها على محور يشبه المحور لدى أحناؤه بوكاشيو لفصص انديك ميروب ، ومنها قصة السيد الذي اقتبس فيها إحدى قصص ألف ليلة وليلة وستهلها بالكلام على بلاط خازن من خانات البسر أو المغول ، ولم يرل لشعراء العربيين ينسجون

على هذا المنوال في نظم القصص إلى عهد لونغفلو Longfellow صاحب الدوان الذي سماه «قصص خان بمنعطف لطريق»

وربما كانت صلة «دانتى» بالثقافة العربية أوضح من صلة بوكاشيو وشوسر . لأنه أقام في صقلية على عهد الملك فريدريك الثانى ، الذى كن يدمن دراسة الثقافة الإسلامية في مصادرها العربية

ودارت بينه وبين هذا الملك مساجلات في مذهب أرسطو كن بعضها مستعمداً من الأصل العربى ولا تزال نسخته المخطوطة محفوظة في مكتبة السير توماس بودلى بأكسفورد . وقد لاحظ غير واحد من المستشرقين أن الشبه قريب جداً بين أوصاف الجنة في كلام محيى الدين بن عربى وأوصاف دانتى لها في القصة الإلهية ، وقد كان دانتى يعرف شيئاً غير قليل من سيرة النبى عليه السلام فاطمع على الأرجح من هذا الباب على قصة المعراج ووصف الإسراء ومراتب السماء ، ولعله اطلع على رسالة الغفران لأبى العلاء ، واقتبس من هذه المراجع كلها رحلته إلى العالم الآخر كما وصفها في القصة الإلهية ، وأكبر الفئلين بالاعتداس على هذا النحو هو عالم من أمة الإسبان انقطع للدراسات العربية . وهو الأستاذ اسين بالسيوس Asin Palacios

وعاش بترارك في عصر انثقفة العربية بإيطاليا وفرنسا وحضر العلم بجامعةى مونتليه وباريس وكليناهما قامتا على تلاميذ العرب في الجامعات الأندلسية ، أما «سرفانتس» فقد عاش في الجرائر بضع سنوات وألف كتبه «دون كيشوت» بأسلوب لا يشك من يقرؤه في اطلاع كاتبه على العبارات العربية والأمثال التى لا تزال شائعة بين لعرب حتى هذه الأيام . وقد حرم برسكوت Prescott صاحب الاطلاع الواسع على تاريخ الإسبان بأن فكاهة «دون كيشوت» كلها أندلسية في الباب

* * *

إلا أن الأثر الذى يفوق هذه المقتنيات الفردية جميعاً هو الأثر الشامل لدى يعربى إليه أكثر القضاى في إحياء اللغات لأوربية الحديثة وترقيتها إلى مقام الأدب والعلم بعد أن كنت مجفوة مزدرة في حسب العجم والأدباء ،

وبعد أن كان كل أدب وكل علم لا يكتب بغير اللاتينية أو الأغريقية ، ولا يكاد يكتب فيها أحد غير رجال الدين ومن في حكم رجال الدين ، وهم يقصرون العلم على أنفسهم ولا يشركون فيه جمهرة ، ولا سيما طبقة السواد

فقد كان شيوع التعليم بالعربية سبباً لإهمال اللاتينية والإغريقية وخطوة لا بد منها لإحياء اللغات الشعبية وتداول الشعر والبلاغة والعلم من طريق غير صريق القسوس ولرهبان والحنقطيين للمباحث الدينية ويروي لنا نوزي في كتبه عن «الإسلام الأندلسي» رسالة ذلك الكاتب الإسباني - الفارو- الذي كان يأسى أشد الآسى لإهمال لغة اللاتين والإغريق والإقبال على لغة المسلمين ، فيقول ، «إن أرباب القسطة والتذوق سحرهم وبين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وذهبوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها » وساء لك معاصراً كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفى من نصيب معاصريه فأسف بذلك من الأسف وكتب يقول

«إن إخواني لمسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسممون ، ولا يفعلون ذلك لإدخالها وبرد عليها بل لاقتباس الأسلوب الفصيح فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ لتفسيرات الدينونة للتوراة ولإنجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء ؟ وأأسفاه إن الجيل الناشئ من لمسيحيين ، الأذكيا لا يحسنون أدباً غير الأدب العربي واللغة العربية ، وإنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكثيرة بأعلى الأثمان ، ويدرسون في كل مكان بالثناء على لدخائر العرصة في حين يسمعون بالكذب المسيحية فيأمنون من الإصغاء إليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤنة الالتفات فبئس للأسى إن لمسيحيين قد سوا لعلمهم فس نجد فيهم اليوم واحداً في كل ألف يكتب بها خصائلاً إلى صديق . أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون بعبير بها على أحسن أسلوب ! وقد ينضمون بها شعراً يفوق العرب أنفسهم في الأناقة وصحة الأداء . . .»

وقد قل د نني إن الشعر الإيطالي ولد في صقلية ، وشاع نصم الشعر باللغة العامية في إقليم بروكس Provence حيث تلتقى الأمم اللاتينية في

الجنوب ، فانتشر من ذلك الإقليم أولئك لشعراء الجوالون الذين عرفوا باسم التروبادور Troubadour واشتق الأوربيون اسمهم هذا من كلمة تروبر Trobar وقيل في رأى بعض المستشرقين إنها مأخوذة من كلمة «طرب» أو طروب وإن اسم قصيدهم Tenson «تنزو» مأخوذة من كلمة «نازع» العربية . . لأنهم كانوا يقولون الشعر سجلاً يتنزعون فيه المفاخر والدعوى كما يفعل القوالون حتى ليوم بين أبناء لبادية المحدثين ، ويوحظ بين أوزانهم وأوزان الزجر الأندلسي تشابه جد قريب وقد صهر الزجر هبل ظهورهم وتعنى به لمصريون وبداوله المنشدون هي البيوت والأسواق ، ووجدت في أشعار الأوربيين شمال الأندلس كلمات عربية وإشارات إلى عادات لم توجد بين قوم غير مسلمين ، وهي تحميس لغنائم وخصاص الأمير بالحمس منها

* * *

ولم تنقص الصلة بين الأدب العربى - أو الأدب الإسلامى على الجملة وبين الآداب الأوربية الحديثة من لقرن لسابع عشر إلى اليوم ويكفى لإجمال الأثر الذى أنقاه الأدب الإسلامى فى ادب الأوربيين أننا لا نجد أديباً واحداً من نوابغ الأدياء عدهم خلا شعره أو نثره من بطل إسلامى أو بادرة إسلامية ، ومنهم شكسبير وأديسون وبيرون وسوڤى وكولريج وشلى بين أدياء الإنجليز ، ومنهم جيتى وهردر وسنغ وهينى بين أدياء الألمان ، ومنهم فولتير وميتسكيو وهيغو بين أدياء الفرنسيين ومنهم لافونتين الهرنسي وقد صرح باقتدائه فى أسطير بكتاب كليلة ودعته لذى عرفه الأوربيون من طريق المسلمين

ولقد تأثرت القصة الأوربية فى نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص فى القرون الوسطى وهى المقامات وأخبار العروسية ومغامرات الفرسان فى سبيل العبد والغرام ، وترى طائفة من النقاد الأوربيين أنفسهم ر رحلات جيهنم التى ألفها سوفت ورحله روينسون كرورو المتى ألفها ديفى مدينة لآل فيه وليله ، ورسالة حى بن يقطين لاسى ألفها الفيلسوف بن طفيل ، وقد كان لآل فيه وليله بعد ترجمتها

إلى اللغات الأوربية أول القرن لثاني عشر أثر يربى على كل أثارها
السماعية قبل الترجمة المطبوعة، واقتصر ذلك بنقل انتصانيف الأخرى
التي من قبيلها فأنصبح الاتجاه إلى الشرق حركة مألوفة في علم الأدب
كما كانت مألوفة في عالم لسياسة والاسعمار

على أن المدرسة المجزية الحماسية في أوبة القرون لوسطى بها
هي ولده الحية لحماسية المحاربة التي سرت إلى الغرب كله من
فاتحي العرب والمسلمين بالقوة العملية، التي لا فكاك منها، ويعتقد
«أنابيز» الكاتب لإسباني المشهور كما يرى انقاري هي موضع آخر
من هذا الكتاب - أن أودية لم تكن تعرف الفروسية ولا تدب ما لها
الصرعية ولا تحوتها الحماسية قبل وفود العرب إلى الأندلس وانتشار
فرسانهم و، بطاهم في أقطار جنوب، وهو اعتقاد يعززه كثير من
الأسانيد، ولعل أقوى الأسانيد التي تعززه ذلك النموذج العسكري الجديد
الذي لم يكن معهوداً في أنطال الوقائع لروماننة والإغريقية، وذلك الغرام
المنتهب الذي لم يسبق له بضر في غزل الغربيين من أهل الجنوب أو
الشمال، وذلك القديس للمعشوقة على نمط العذريين أو على النمط الذي
أجاز لمتصوفة لمسلمين أن يمزجوا بين نعمة العبادة ونعمة لتشبيب ولم
يكن تشبيب العاشق بالحبيب في آداب لغرب إلى هذا المقام،

وقد بلغت المفردات العربية التي أضفها الإسبان وأهل البرتغال إلى
لعتهم ما يملأ معجماً غير صغير ولكن اسعرة مع ذلك بسحول تلك
المفردات في الحياة الاجتماعية والمقاصد النفسية لا بمجرد دخولها في
صفحات المعجمات، فيها لم تتمثل على لأسنة لا بعد أن تمثلت في
أحوال المعيشة ونوارع الإحساس والتفكير، ومن هنا يعزى إليها من
فعل الإيحاء والوحيه أضعاف ما يعزى إليها من فعل ليقول والتلقين

الفنون الجميلة

فنان جميلان لم يكن لهما نصيب كبير في لحصاره العربية ، وهما التمثيل
والنصير بدوعيه ونوعاه هما الرسم والنحت ، أى صنع التماثيل

وشأن العرب في ذلك كئش كثير من الأمم الشرقيه أو الغربيه ، فإن
التمثيل والتصوير لم يكونا في التاريخ القديم من الفنون الشائعة بين شعوب
الحصارة ، ولا بين البداوة من باب أولى ،

وقد نشأ التمثيل حيث شأ في بلاد الإغريق من بعض الشعائر لسنيه
لتى كانت في موسم إله الحمر والصبوه ديونيسس Dionysus

وكان في أول عهده مقصوراً على الرقص ولعناء ، ثم أضيف إليه ممثل
واحد يشغل لوقت بين الرقصات والأعاني ببعض الالاعيب والترتيل ، ثم
أضيف إلى للممثل الواحد زميل فرميلان ، وتعددت الأنوار في العرص
الواحد تبعاً لهذه الريدة وهذا السويع ، حتى شأت الرواية لمسرحية على
وضعها المعروف عند قدماء الإغريق

فالشعوب التى دخلت عياداتها الدسبة الأولى من أمثال هذه الشعائر لم
تخلو فيها فرصة لبطوير فن التمثيل على هذا المنوال ، وربما كان في
المجتمع العربى سبب آخر من الأسباب التى حالب نون تطور لتمثيل من
أص اجتماعى غير أصول العباد ب فإن التمثيل بعض الفنون التى ترتبط
بالحياة الاجتماعية أوثق ارتباط ، ولا يعقل التمثيل في بيئة لم تتعدد فيها
أنوار الحياة الاجتماعية على حسب اختلاف الأعمال والصاعات ولشارب
والطبقات ، فإنما يقوم التمثيل من التحية الاجتماعية على التجاوب بين
الأفراد والأسر كلم تعددت العلاقات وتنوعت المطاعم والنزعات ، ولم يكن
في مجتمع اسداوة مجال كبير لهذه التجاوب الكثير بين أسرة وأسرة وبين
إنسان وإنسان ، وم كان من ذاك قائم في حياتهم البدوية أو حيثهم
لحصرية فقد وجد الكفاية للتعبير عه في القصائد والأعاني وألعاب ، القروسية
وضروب المساجلات والمفاخرات التى تتفق لهم من حين إلى حين

أما التصوير فقد قيلت في تعبير نقصه عند العرب أقول شتى لا تستند إلى رأى جدير بالإقناع ، ومنها أن قلة لتصوير من قلة الإحساس أو قلة أصابع المحسوسات هي لنفس بلك القوة التي تفيض عنها فتلتصق لها مخرجاً بالنعثيل والتجسيم .

ولما قيل إن التصوير لم يبلغ مداه من التوسع والارتقاء في الحضارة العربية لأسباب دينية قتل المتهمون بقريحة السامية إن تحريم الصور والأنصاب إنما هو نتيجة لضيق الحاضرة ونضوب الحس وبس هو بالسبب الأصلي لإعراض العرب عن رسم الصور وحت لتعائيل

قالوا ولولا انقطاع التعطف الحي بين العربي وبين الحيوان لما صدف عن تشبيه الأحياء وتصويرها في لأتية والأدق كما صنع أبناء الأمم الأخرى في اشترق القديم .

ولكن الصحيح الذي ينسأه أصحاب هذه الأقويل أن الشعوب الأخرى لا تعرف تعاطفاً حيد بين الإنسان والخالق ، الحية التي تلتزمه أو ثقب ولا أكرم من التعاطف الذي كال بين العربي والجود أو الباقة أو كلب الصيد أو ظاء لفلاة ومهاها وطيورها وسائر حيواناتها . وقلما نظم شاعر عربي في عهد لبداره قصيدة من الشعر إلا سبها بوصف محبوب أو وصف حمل أو ناقه وصف جواد كريم ، ولم يشبه الشعراء في أمة من الأمم القديمة جمال الأحباب والحسان بجمال المها والطاء كما فعل شعراء العرب الأسبقون ومن اقتدى بهم من ، لشعراء اللاحقين وهذا ولا شت إحساس نافذ قد وجد سبيله في التعبير بقرن من القديون اسميسورة لأبناء الصحراء ، إذ ليس لتصوير وحده وسيلة للتعبير عن الإحساس ، ولا سيما التعبير في بيئة بدوية تمتع فيها أدوات التصوير .

وحدير بالكر في معرض الكلام على تحريم الصور أن هذا التحريم قد دان به أساس كثيرون في أسيا الصعري واشتهرت به طائفة كبيرة من صوائف لكنيسة الرومانية الشرقية عرفت باسم محطمي الأصنام أو لأيقونات Iconoclast وكانت دعوتها في القرن السابع مقدمة لانفصال لكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية . ولم تحس الكنيسة أنغربية بعد هذا الانفصال من أتبع أشداء يديون بمذهب أولئك لمحرمين ولولا حنظن

المعابد لفن النحت والتصوير لكان من المشكوك فيه أن تفي بطلبات
لاجتماعية وحدها في أقطار أوربة بحاجة هذين الفنين وبجاجة المشتغلين
بهما من نوابغ المصورين والمثالين

ويجوز أن يقال في هذا الصدد إن الفرق بين العرب والأوربيين في تطور
النحت والتصوير إنما هو فرق بين تحطيط لعسجد وتحطيط الكنيسة كما
توحيه العقيدتان ،

فم يكن في هذا الإسلام محل للوسطاء بين الله والإنسان ، وليس فيه من
ثم محر لأسرار الكهانة ومحاريسها ولا لنجسيم الإله والقديسين ، وليس
بالمشهور من العبادة الإسلامية مع هذا الاعتقاد - أن تحتضن الفنون
التي ترخرف المعبد بالصور والنماثيل ، وليس أهمل في تشجيع الفنون من
رعاية المعبد وبغيرة العقيدة ، وهما قد فعلا في ترقية فن البناء بين المسلمين
ما فعلته الرعية في تمجيد القديسين من ترقية الحب والتصوير بين الأوربيين
فالمسجد لا يحتضن الصور والنماثيل فلم ينسج لها مجال في الحضارة
الإسلامية كما اتسع لها في الأقطار لأوربية

ولكنه لا يمنع البناء الحميل ولقباب الفاخرة فكان هو أساساً لفن العمارة
العربية الذي ضارع أجمل فنون البناء في القديم والحديث
وقد كانت للسليقة العربية - أو الشرقية - سمة خاصة فيه تدل على طابع
مستقبل عن الأساليب التي اقتبس منها العرب فنون البناء

فمن الخطأ أن يقال إن الأسلوب البيزنطي هو أساس المدرسة التي
اتخذت البناء في الشرق على هذا الطراز ، لأن الصراز البيزنطي نفسه نفحة
من نفحات الشرق التي خالفت بينه وبين أساليب افارة الأوربية من قوطية أو
رومانية ، ولولا هذه النفحة من روح اشرق لما حدث هذا الاختلاف بين بناء
بيزنطة وبناء الجرمان أو الطليان

وهما لا شك فيه أن العرب قد اعتمدوا على فنون لبناء في الأمم التي
سبقتهم إلى هذا الفنون ومنهم الفرس والروم والمصريون ، وأنهم قد استعانوا
بالبنايين من القبط والأرمن في كثير من العمارات ، ولكن الذي لا شك فيه
كذلك أن اليد ، صابغة لم تكن في الحقيقة إلا الأداة المعبرة عن الروح العربية
التي لا تلجس بغيرها فمن ذا الذي يتسلى متظراً من مناظر القصور العربية
وعزل عنه وبين رشاقة النخلة لهيفاء وخفة الفرس الضامر وهودج الحرم

المكنون وتناوب الحياة بين لفضاء والظلال " ومن ذا الذي ينظر إلى تلك الأقواس والوفاقد ولا يعقد الصلة بينها وبين الحافر تارة والخف تارة أخرى ؟ بل من ذا الذي يسمع المقبلة بين المصاريع ولقوا في الشعر العربي ولا يلمح المصدر الذهني الذي أوحى به ماثلاً في الأنساق والمقابلات أو في العريجات المتقبلة كما ظهرت في أول بناء مقنس حج إليه العرب وهو البيت الحرام ؟

فالروح العربي قد أضفى مثاله على صراز البناء لمنسوب إليه بغير مراعاة . فلا يرى الناظر عربية ثم يخطر له أنها من وحى أوربة أو وحى الصير أو وحى فارس على تشابه الصرز في بعض الصفات .

ونحسب أن هذا لطاع الصراح هو الذي منع اقتباس الطراز العربي بتفصيلاته في الأقطار الأوربية التي اتصلت بالحصارة الإسلامية ، لأنه إما أن يكون طراز إقليم أو طراز مسجد ، وكلاهما لا يقتبس بتفصيلاته لاختلاف المناخ والعقيدة والمرسم الديني

ومن هذا اقتبس الأوربيون ما وسعهم اقتباسه من طراز بناء العربي متفرق في القصور والقلاع والأماكن التي لا شأن لها بالعقائد والمراسم الدينية

فقدع في إنجلترا على عهد الملكة إليصابات وما بعده بعض النقوش لبرزة التي أطلقوا عليها اسم النقوش العربية Arabesque ويبوأ قلاعهم بعد الحروب الصليبية على طراز العربي في مضاعفة الجدران وإفاده أنروج ما بينها ، وبحصيط لحصون المركرة وإقامة الأبواب لمحرقة ذات الروايا الثقمة التي تحولت من استجد ، ثم الباب عند الوصول إليه لمصوب القدائف إلى الألفية الداخلية ، وقد أحسوا من الكدش الشرقي التي تأثرت بالصرز العربي كصفاً من الزوايا والبروج المستديرة لم يكن لثاة الكنائس عهد بها في المغرب قبل الحروب الصليبية

ولا أدل على مدى السلطان الفني الذي كان لمصنوعات العرب بين الأوربيين من محاكاةهم لها بغير تصرف فيها ، بل أن يفهموا معناها ، ومنها ما كان حروف مكتوبة ينقلها الصبغ وهم لا يحسنون قراءتها ، لأنهم حرصوا على محاكاة بزخارف ولمزكشبات العربية كما رأوها على الأقمشة والمعدن والأخشاب المرصعة أو المنقوشة ، وقد ذكر الأستاذ

توماس ريبولا هي كتب تراث، لإسلام، أنهم عثروا في بيرلدة على صليب من مصنوعات القرن التاسع على الأرجح نقشَت الدسمة على زجاجة في وسطه بالحروف الكوفية، و شتمت كنيسة بمدينة فيورسنة في منظر تنويج السند العنراء على أسحة بين أئدى الملائكة منقوشة بالحروف لعربية، ودخلت الأشكال الشرقية على هذ النحو في ظهرات لصور وبين الماظر المرسومة على الجدران فكان لها نصيب من توجهه فن لرسم عند نهضته في القرن اوسطى

على أن العرب لم يتجاووا الصور بتة في عصور اجاشية أو عصور الدولة الإسلامية، لأن أشعارهم حافلة بوصاف، لدمى والعرائس والتصاوير في الملابس والعباسى ولآنية وحلى الريبة وقصور الملوك والأمرء، وقد أشار لذبعة إلى نصى الرخام حين قال

أو نحية مرمر مرقوعة بنيت بأجر تشاد وقرمد

وأحمسى، لبحانة المرحوم أحمد تيمور باشا في كتابة القيم عن التصوير عند العرب مئات الأنثا لتى تدل على انتشار الرسم والبحت ومصنوعات هذين الفين في العبانى والمصوغات والمنسوجات لى بصعها المسلمون، وأتى على أسماء كثير من مصوري العرب بدين فرعو، لنقش الرسوم او سحت للمائيل من المعادن والأحجار

ولس بد في هذا الفصير ن تتوسع في الشراهد والامثلة التى تدل على وجود الصور والمصورين في الحضارة العربية، فإنما بعننا هان العرب لم ينقبوا بالخف في فى التصوير والبحت بين أمم العصر لعبيعة وأنهم لم يقصروا فيهما لنقص فى لحسة الفنة أو العواصف بحوية، وقد كان نوقهم الفنى رمدا من الأزمات فتوة للأوربيين فى مجال الفن الذى يعم لفصور واسيرب والمصانع والأسوى، ولا سحصر فى نور الفن ومراسم نومة

الموسيقى

أما فى الموسيقى فالاختلاف ظاهر بين الموسيقى العربية وموسيقى العصر الحديث فى أوربة ، من القرن الثامن عشر إلى الآن ولكن هذا الاختلاف لا يرجع إلى فارق أصيل بين الفطرة العربية والفطرة الأوربية ، كما خطر لبعض المحدثين الغربيين فى معرض المفاضلة بين العناصر والأجناس .

لأن الموسيقى الأوربية القديمة كانت على مثل هذا الفرق بينها وبين لموسيقى الأوربية فى أطورها الأخيرة فكنت موسيقى اليونان و الرومان قائمة على الأغاني الحسية أو على الأنعام التى تصاحب لرقص والغناء ويتقلب فيها قصد الطرب على قصد التعبير ، وكانت الألحان الأوربية إلى ما قبل القرن الثامن عشر ألحان تريم ونعيم ولم تكن ألحان تنسيق وتنويع على الأسلوب الذى سماه المحدثون «بالهرمونية» أو فن تناسق الألحان المختلفة

والأوربي لحديث مع هذا لا يطرب لموسيقى «الهرمونية» فطرة وارتجالا يغير تعليم أو تدريب فإذا تعددت الأنغام وتفاوتت الطبقات واتسع نطاق التباعد بين القوافى المرددة فالسامع الأوربي يضل طريقه إليه ويشعر بالجهد والإعياء فى محاولة لتوفيق بينها وربط فواصلها وانتظار اللازمة التى تسرى بين فصولها . ولابد له من إحاطة واسعة بمواضع الإيقاع وطبقات الأنغام ، حتى يسيغ تلك الموسيقى المركبة ، ويفتبط سماعها اعتباط المرء بفنون النوق والحمال ، وقد يكون عسى أرقى بصيب من الفن الموسيقى الرقيق ، ثم يستمع إلى توقع جديد فيفر منه حتى يسيغه ويستعذبه بعد لتأمل والأناة . وفى ذلك يقول الأستاذ دوجلاس مور Douglas Moore أستاذ الموسيقى بجامعة كولومبيا فى كتابه «من الأنشودة إلى الموسيقى العصرية»

« إن السماع الذي تدرب على سماع النماذج لسهولة خليق أن يشعر بالانقباض إذا أحس أنه يضم طريقه عاجلاً وهو يصغي إلى السيمفونية فليطمئن إذن ولا بأس على ذلك لأن ما يتفق له من هذا القبل يتفق لغيره على نحو من الاتحاء بالغاً ما بلغ نصيبه من التدريب والاختبار إذ إن قدرتنا على الانتباه المركز أضيق من أن تسع كثيراً لتعليق الإصغاء مع صحة السمع ، واهل الصناعة أنفسهم يرتاحون للمألوف من الموسيقى فوق ارتاحهم إلى الحديد منها ، لأن مجهودهم في الإصغاء إلى المألوف قبل بالقداس إلى الحديد ، ولكن لمراعاة والدأب على الانتباه مع الصبر والتفهم بمهدان الطريق إلى الألفة وبعجلان بتمهيد ، فتزداد القدرة على استيعاب معاني الموسيقى الحيلة وباتها الرفعة أوفر مزيد »

فماذى طرأ على الموسيقى الأوربية الحديثة من التنوع والتركيب قد بعد بينها وبين موسيقى اليونان والرومان كما ناعه بينها وبين موسيقى العرب والشعوب الشرقية عني التعميم ، ولم يكن طارئاً على الفطرة الأوربية أو الفطرة الإنسانية وإنما كان طارئاً من طوارئ المعارف والمخترعات بعد لتوسع في علم الصوت وتركيب الآلات وتلقح لموسيقى الحسية بموسيقى لعبادات ثم بموسيقى السمحات الروحانية والتأملات الفلسفية

فقد تباعد الاختلاف بين الموسيقى لقديمة والموسيقى الحديثة في اليوم الذي اتسعت فيه للاثتمل على العواطف الدينية والصلوات الإلهية ، وأصبح لسماع يصغي إليها في محاريب العبادة وهو متهيئ للخشوع والإنابة إلى عظمة الله ولغوص في سرائر الأكوان فلما اتسعت الموسيقى لهذه التعبيرات العليا لم يكن لها أن تصبى بتعبيرات الحكمة العميقة والبداهة الصوفية والبقحات العنقوبة التي شاع سلطانها في أورمة بعد وهن لسلطان لدينى فيها من حراء ثورات التمرد ولتجديد ، وليس يعجيب من أحل هذا أن تكون بلاد الموسيقى لكنيسة هي بلاد الموسيقى الهرمونية وبلاد الموسيقيين الذين ألدعوا في الأوبرا والسيمفونى وسائر فنون لتركيب ، وهي على الأغلب بلاد إسباني وإيطالي وألماني ثم

روسيا التي شاعت في كتابتها فرق الترتل والتقسيم ، وقد بلغت بنظر
في هذا الصدد أن الأقاليم التي أنقض فيها سلطان الموسيقى لكسنة
مرة واحدة - وهي أقاليم ألمانيا النازية - كان نصيبها من كبار
الموسيقيين نور نصيب الأقاليم التي اتصل فيها القديم بالحديث

إلا أن الصلة لم تقطع بين العرب وتطور الموسيقى الأوربية في هذا
الطريق

لأن الأندلس هي البلاد التي تلقت من الأندلس على العرب وامرجت
فيها الموسيقى لحسية بموسيقى لعبادة عدة أحيال بعد زوال الدولة
العربية ، فكان للإنسان رقص ديني ترعاه الكنيسة وتنفذ فيه الصلة
بين موسيقى الأقدمين وموسيقى المحدثين

ومن الحقائق المقررة أن أبناء أوربة لغربية كانوا يتعلمون أقاليم
الأندلس على أساندة من العرب الأندلسيين ، وأنهم نقلوا أسماء بعض
الآلات باللفظ العربية عبققت في اللغات الأوربية حتى اليوم بعد
تصحيح يسير فكلهم لو Lute من لعود ، وكحة نكر Naker من
النقرة ، وكلمة Clef أو المفتاح للموسيقى من تقليد ، وكلمة Rebec
من لرباب ، وأرباء العباسيين التي تورنتها أوربة بعد تسدل اسبب بها
قد بقيت متشابهة لأبناء المعين حين كانوا في المغرب يحملون كما
يحمل لفين فيرسلون الشعر ويطلقون لحدود ويكحلون لحنون

على أن بعض الأوربيين الحبراء يدريخ بموسيقى عربية كالاستاد
فأرمر Farmer يرون أن العرب قد سبقوا لأوربيين إلى نوع من
لهرمونية يسمونه «أتركيب» ويعنون به توقييع النعمة الواحدة من عدة
طبقات في وقت واحد ، وهو غير بهرمونية كما يفهم اليوم ، ولكنه خطوة
إليها من طريق الترتيم المعهود

ولا خلاف بين المؤرخين في تداول العنماء الأوربيين لبحوث العرب هي
الموسيقى لضربة ، فإنهم على قلة ما ترجموه من تلك البحوث قد كان

منهم منات يطلون العلوم بمدارس قرطبة وغيرها ، ومنها الموسيقي النظرية ، وقد كنت الخيرة بالغة العربية شرطاً من شروط الرجل المثقف بين الإنسان لمسيحيين فكان طلابهم في جامعة أكسفورد لإنجليزية يسخرون من العالم المشهور «روجر باكون» كلما أخطأ في الترجمة اللاتينية العربية ، لأنهم كانوا يطلعون فيها على النص الصحيح وقد حيل إلى بعض النقاد الأوربيين في الزمن الحديث أن أصوات العرب لم تكن تحتل لتفخم والارتفاع قياساً على ما يسمعه في الأسواق من الصيحات البدوية التي نعلب عليها الحدة و«لنحافة» وهو تخيل كان خليفاً بهم أن يعلموا مكانه من الخطأ إذا أحضروا في أذهانهم «الحداء» في الصحراء ، وهو غناء العرب القديم ، وفيه ما فيه من مجال للأصوات التي يملأ الفضاء وترتفع إلى جميع الطبقات

وليس بين الموسيقى لعربية والموسيقى لأوربية فرق ضيق في السلم المعتد عند العرب والأوربيين إلا أن الموسيقى العربية لمثبت بالمألوفات يعتز بها يسميه ربع المقام ويخسه فرقاً حوالياً بين أنغام الشرقيين وأنغام الأوربيين ولكن ملاحظة هذا «ربع» ليس شرطاً للسمع في الأذان العربية ، وإنكاره ليس شرطاً للسمع في الأذان العربية ، وإنكاره ليس شرطاً في الأذان الأوربية وقد صنع الموسيقى الحديث هانس بارت Hans Barth بيتاً لوحظ مدع ربع المقام ، وألف إيفان وشنجرادسكي Ivan Wischnegradsky كتاباً في اربع و لموسيقى الهرمونية ، ووضع ألوار هابا Alois Haba أوبرا وتوقيعات أخرى على قاعدة الربع لمحوظ في الأغاني العربية ، وصنع جوليان كريلو Julian Carello فيثاراً على هذه القاعدة ولحن بها جون إيليني Appleby موضوعاً يدور على حديث سقراط ، وأنشأ بيغولا رمسكي كورساكوف Korsakof جمعة لدراسة ربع المقام منذ نصف وعشرين سنة في لنتجراد - «ر جمع موسوعة مكملان للموسيقى والموسيقين»

وهؤلاء عدا الموسيقيين الذين أدخلوا الأنغام العرسية في تقسيماتهم المسرحية وغير المسرحية أمثال روبنشتاين وفليكنز دافيد وبمان سانس Saint Saens وقربوا بين الترسيم والهرمونية بعض التقريب

فإذا شاعت هذه لقاعدة في أوربة ودخلت في تركيبات الآلات وبورج الأدوار فهي أثر جديد الأدوار فهي أثر جديد للفن العربي يضاف إلى الأثر القديم .

الفلسفة والدين

من الآراء التي شاعت بين الأوروبيين في القرن التاسع عشر أن الأمم الشرقية تطلب العلم بالمنفعة ولا تطلبه للمعرفة و لمتعة العقيدة ، كما كان يطلبه الإغريق في الزمن القديم

وأية ذلك عند أصحاب هذا الرأي أن المصريين والبابليين والفرس والهنود كانت لهم علوم يتد رسونها ولكنها كانت كلها من قبل لصناعات التي تنفعهم في لساء والزراعة وعلاج الإنسان والحيوان ، وأن الإغريق وحدهم الدين عرفوا العلم والفلسفة كلقاً بالبحث والنظر المجرد لغير منفعة مقصورة من منافع المعاش

وهذا الرأي يروح بين الأوروبيين بغير تمحيص ولا مناقشة ، لأنه يعجبهم ويرضى عروهم ومصلحتهم في وقت واحد يرضى عروهم لأنه يميزهم على الأمم الشرقية بأشرف المزايا الإنسانية ، ويرضى مصحتهم لأنه يسوع لهم استعمار الشرق واستغلاله في عصر الاستعمار والاستغلال

ولكن الطريف في الفكرة أنها هي نفسها ليست من الأفكار الفلسفية أو العمية التي تخو من لصفة والتسليم بغير سبب معقول فإن العقل لمطوع عى الفلسفية والبحث لمجرد لا يقبل أن يتركب العقل لإغريق طبعاً وأصلاً على غير التركيب الذي استقر في السلالات البشرية الأخرى ولا يستريح إلى هذا الحكم المعتسف بغير علة يرد إليها هذا الاختلاف العيب في أصل التركيب

والواقع أنه لا اختلاف هناك في أصل الصبغة بين العقل الشرى في لإغريق والعقل البشرى في السلالات الشرقية التي ذكره ، وإنما يقع لاختلاف لأسباب موضوعية يجور عى الإغريق كما تجور على المصريين والبابليين والعرب والفرس والهنود ،

وبما امتار لإعريق بالبحوث لفلسفية في زمن من الأزمان لسبب واضح هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العريقة ، وهي لم تكن مباحة لهم لمريه أصلية في طبيعة تركيب كما وهم القائلون بذلك لرأى المتعجل لعسوف ، ولكنها أصبحت لهم لأن بلادهم نشأت وبصورت دون أن يشأ فيها ملك قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت في مصر وبابل لكان شأنهم في أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن البابليين والمصريين

فالبلاد التي تجري فيها الأنهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة وينشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث في أصول الأشياء وحقائق التكوين وتتولى شؤون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها لا يجوز الإفتدات عليه ، وإلا كان المفتتت كالمعدنى على نظم الدولة ومحارب العبادة ، ومتى طال الأمد بهذه الكهانات حبلا بعد جيل وعصرًا بعد عصر تمكن سلطاتها وتشعبت دعاواها وتلبست معوماتها بلباس الأسرار و لطلاسم وابتعدت شيئًا فشيئًا من نطاق البحث احر إلى نطاق المحفوظات والتأثيرات

ولو نشأ لليونان دولة كهده الدولة وكهانات كهذه الكهانات لما احرعوا على التعرض لمسائل الحلق والخالق وطبائع الكون ومكوّنة بين سواد الناس وجمهرة انظاره ، وبسمعهم من شاء منهم بلا رقاب ولا حسب إذ حدث للأوربيين ما حدث في الشرق حين قامت في بلادهم الكهانات القوية وبسست سلطاتها على التعليم ومعارض البحث في حقائق الدين وأسرار الطبيعة وقوانين الوجود فبطلت الفلسفة والدرسات العلمية في القرون لوسطى وحل بين الناس وبينها إلا باذن من رجال الدين في حدود النصوص المقررة كما كانوا يفهمونها ويبحون فهمها ، واستطاعت الكهانة الأوربية أن تفعل ذلك وهي حديثة العهد لم تبغ من العرقه مبع الكهانة المصرية أو البابلية ، إذ كانت تعد أعوامها بالعشرات أو المئات القليلة وقد غرت على الكهانات القديمة ألوف من الأعوام بعد ألوف

على أن الإغريق لم يتحركوا للبحث في الأسرار الإلهية والعلوم الطبيعية إلا بهداه من أمم الكهات التي سبقتهم إلى الدين وعبادة الخلق العظيم . يوم كانوا يحلوا قبرة أمثال ولا يعرفون أنها صفة لإله العالم بأسره . كما عرفها الموحدون في ظل لإله الواحد العظيم . كان في أرض الإغريق ، وفي جزيره كريت ، أسس من السلالة الإغريقية التي تشملهم على اختلاف القبائل والنهجات ، وكانت لهم حضارة يظهر من بقايا الحفر في مواضعها أنها زدهرت قبل ميلاد المسيح بسبعة عشر قرناً على أقل تقدير . فلم تكن لهم فلسفة ولا نبع بينهم حكماء متفلسفون في طوال تلك القرون ، وإنما نبع فلاسفتهم على الشواصي الأسيرية أو لجزر ، لقريبة منها ، بعد احتكاكهم بالأمم الشرقية ذوات الحضرة العريقة ، ولو لم يكن لعقائد الشرقيين وعمومهم فضل في تنبيه أذهان الإغريق إلى أصل اوجود وتقديرات الفكر والإنسانى الأول لعن الأشياء لما كان هناك معنى لظهور الفلاسفة الأولن على مقربة من تلك الحضارات ، وليس بصحيح أن ، لإغريق قصدوا لفلسفة النظرية ابتداء منذ أخذوا في لبحث عن حقائق الأشياء ، فإن فيثاغوراس كن يمزج الدين بالحكمة ويشرف على تنظيم الجماعات السرية التي تطمح إلى ولاية الحكومة ، وكان اكسينوفن Xenophanes بشر يدين التوحيد وينهى على تعبد الأرباب ، وقد كان فيثاغورس يؤمن كما يؤمن الهنود بتقمص الأرواح وثلاثة الخير والشر والنور والظلام ودورات الحياة والأزمان ، ويرى أنه لا نجاه للمرء من دوّاب الطبيعة الذي تقيد به تلك الدورات إلا بالريضة والتكشف وخلوص النفس لمعرفة والحكمة ، وكان نباتاً يحرم أكل اللحوم على طريقة البراهمة ، وقد حدا حدوه في معظم آرائه بميدوقليس ، ودخل من فلسفته الروحية في مذهب أفلاطون . وليس أدنى على الصبغة الشرقية في الفلسفة ، لإغريقية الأولى عن غلبة عم القلب ولربصيات على رواد هذه الفلسفة الآسيويين ، وعن غلبة الصبغة الدينية على فيثاغورس واكسينوفان والعريدين لهذين الحكيمين ، ومن عدد السبعة لذي أطلق على الحكماء السبعة السابقين ومنهم تاليس وصولون فإن المعارف الفلكية تقدمت في بابل ومصر قبل أن

يساولها الإغريق بألوف ، لستين ، والجماعات الدينية السرية نتقنت من ملاد الكهانات القديمة إلى آسيا الصغرى وما يليها . وليس هذه كله مما نفهم منه أن السليقة لإغريقية هي التي ابتكرت البحوث الفلسفية أو كانت هذه لفلسفة ملزمة لها في جميع العصور

عنى أن لمصدر الشرقبة - ومنها انثورة واقوال المصيريين والبابليين - ظاهرة هي أقدم المذاهب الإغريقية وهو مذهب طاليس الذي لا يخلو مذهب فلسفى بعده من بعض آرائه فهو كما قال الشهرستاني يرى «أن لمعالم مبدعاً لا يدرك صفته العقول من جهة جوهرية وإنما يدرك من جهة ثاره ، وهو الذى لا يعرف اسمه فضلاً عن هويته إلا من نحو أفاعيله وإبداعه وتكوينه الأشياء ، فلسفاً يدرك له اسماً من نحو ذاته بل من نحو ذاتها» إيسى أن يقول «وبقر عنه أن لمبتدع الأول هو الماء والماء قابس لكل صورة ومنه أبداع الجواهر كلها من السبع والأرض وما بينهما ، وهو عنة كل معدع وكل مركب فى لعنصر الحسمانى ، فذكر أن من جمود الماء تكونت الأرض ومن انحلاله تكون الهواء ومن صفوة الماء تكونت النار ومن الدخن تكونت السماء ومن الاشتغال الحصل من الأثير تكونت الكواكب »

قال الشهرستاني «وفى النوراة فى السفر الأول مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى ثم نظر إليه نظراً الهيبة فذاست أجزاءه فصارت ماء ثم ثار من الماء بخار مثل الدخان فخلق منه السموات وظهر على وجه الماء زيد مثل ريد البحر فخلق منه الأرض ثم أرساها بالجيال وكان ثاليس الملقى مذهباً من هذه المشكاة النبوية »

أما حب العلم لعلم فشأن الإغريق فيه كشأن جميع الأمم والسلالات ، وحسبك أنهم سموا علم الهندسة علم «قياس الأرض» بعد تقدمه وظهر تطبيقات له غير مساحة الأرض وتقسيم المراعى والمروج . ولعل هذا مما يشير إلى الأصل الذى اقتبسوا منه معارفهم الهندسية ، لأن

العصريين كانوا يحتاجون إلى إعادة مسح الأرض بعد الفيضان ، ولم تكن باليونان حاجة إلى المساحة والتقسيم كل عام
واسمحاء لفرق الظاهر في أسباب الاشتغال بالعلوم من ضعف الكهانات في الأوصار الإغريقية وقوتها في الأوطان الشرقية ، فلما ابتدأ الإغريق بحوثهم مصوا فيها صلحاء من قبود الدولة والدين ، وتيسر لهم ما تعذر على غيرهم لهذا العارق العرضي لا لفارق في تركيب العقول وعناصر التفكير .

وليس أصعب من إثبات السلالة الإغريقية الحالصة لجميع لفلاسفة الموزعين بين سما الصغرى وأرض يونان وحرر الأرجيل وصقلية والإسكندرية وتراقية وهي تشتتم على شتى الأحناس غير الإغريق ومن الواضح أن فيض الحوث لفلسفة عن الإغريق لم يكن ذلك الفيض الدافق العرم الذي يحطم القبود ويقتحم السبود لأن سداً من أضعف السبود التي استلكت بها الأمم الشرقية في تاريخها الطويل قد غيَّض ما فاض من قرائح اليونان في بضعة أحيان معدودات فاقصى عصر الفلسفة اليونانية أمام صدمة مقدوسة وأخرى رومانية ، وعاش الإغريق بعد ذلك في بلادهم دون أن يظهر منهم فطسوف واحد إلى هذه الأيام

فلا جرم تفعل الحواحر والقبود التي استلرمتها طسعة تكوين الدولة في الأعم لشرقية مثل ما فعلته في اليونان خلال عصور الحمود والإنهار ، ولا حاجة بنا إلى تفسير آخر غير هذا التفسير نعوض فيه على أصول التركيب التي لا تقبل لتعليل بعلة من علل الفلسفة أو عن لدرسة اعلمة فربما هي عورض من أثر البيئة واستاويح أصابت اسميين بإسماها المعروفة كم أصابت لهرس والهنود أيضاً وهم غير ساميين ثم أصابت الإغريق ولأوربيين أيضاً دهوراً طولا تحب سمن لدول والكهانات ، فكانوا أضيق بالبحث لعلمي صدرًا من شعوب الشرق حمعاء ، وحسب من داك محاكم التفقيش وعقوبات الإحراق والحرمان

وم تكن للعرب في الحاهلية بولة قوية كاللدول التي قامت بين النهرين أو على ضفاف النيل ، ولكنهم عاشوا عبثة البدو الرحل في طلب الكلأ ولماء أو عيشة

البدو الرحى فى تجارة القوف بين لصيف وشتاء ، وأحوجتهم مطالب
لمعش إلى العزو والسدع بغير هواة ولا انقطاع ، وما من أمة سامية أو غير
سامية تفضى أيامها فى أمثال هذه الشواغل ثم يتسع لها المقام لدرس
الفلسفة وتحصيل لمعارف البضرية التى يعين عليها الأمان والاستقرار

ومن صروب انجنى التى لا تحمد من العلماء أن يقال إن لعقل
العربى لن يستطيع التفسير بحال من الأحوال ، لأن لفارابى وابن
سيب مثلاً كنا من سلالة فارسية على أشهر الأقول ، ولم يكونا من
سلالة عربية أو سامية ، كأنما كنت للفرس قبر تلك فلسفة فارسية
أو كن لهم عذر كعذر العرب فى هجر البحوث الفلسفة طوال العهد
الذى مروت بهم '، الحضارة والعمران

وبما رأى المسلم الذى يقبله المنطق والعلم على السواء أن مواقع
الفلسفة واحدة حيث كانت الأمة من مواقع الأرض وكيفما كانت السلالة
من عناصر الأجناس والأقوام فلا عريق فى موضع العرب لا يتفلسفون ،
والعرب فى موضع الإغريق لا يحجمون عن الفلسفة ودراسة العلوم

على أن يعقوب الكندى عربى أصيل لم يعرف له سبب دحير ،
وفلاسفة الأندلس كانوا من العرب ولم يكونوا من الفرس أو الأوربيين أو
كانت عربيتهم كالأعريقية التى يسمى إليها سكن تراقية وجزر الأرحيل
وكريت وصقلية واسيا الصغرى ، وجالياتهم بصور وصددا ووادي النيل

ولعل هؤلاء الفلاسفة لأندلسيين هم 'حق الفلاسفة المسلمين بالسبب
بهم فى معرض الكلام على توجه الأوربيين إلى البحوث الفلسفية
والدراسات لمنطقية فى فلسفة التمرق كالفر بى وابن سينا
وغيرهم ثم يداعو بين الصلاب لأوربيين عامة لا من هذا لطريق ،
وكان الفصل المباشر فى تعريف لأوربيين بهم لأمثال ابن راجة وابن
صغير وابن رشد وابن زهر ، وغيرهم ممن راولوا الفلسفة والطب أو
راولوا الطب على غير ذلك أم قبل ذلك فقد كن العلم بهم مفصلاً على
الخاصة والمفردين للاستبحار فى العلوم

والأوربيون قد بدءوا بالاصلاح على فلسفه ابن سينا فسن ن يسمعوا
 بأسماء الفلاسفه الأندلسيين ، لأن رايخوند أسقف طليطله أمر بترجمه
 بعض مؤلفاته إلى اللاتينية قهر منتصف القرن الثاسى عشر للميلاد ولم
 يكن هذا أول عهد المتفقهين من أبناء أوربه العربيه بالاطلاع على الثقافه
 لعربيه فى حلقات الدرس بالجامعات الأندلسيه فمن تلاميذ هذه
 الثقافه قبل نهايه القرن لعاشر رجل شتهر بها وعده أبدء عصره من
 السحرة وأصحاب لخوارق لفرط ما أدهشهم من سعه علمه ووفرة
 محصوله ، وهو الكاهن حربارت لذى عُرِف باسم سفسر لثاسى حين
 ارتقى إلى عرش البابويه سنه تسعمائة وتسع وتسعين

وجاء الفلاسفه الأندلسيون ففتحوا باب على مصراعه ، وكان فقهاء
 المسيحيه يفضون أكبرهم وأشهرهم أب الولد بن رشد - لانهامهم إياه
 بالنزعه لماديه وإنكار خلود النفوس الفرديه ، لكنهم كانوا يستريحون إلى
 ابن باجه وابن طفيل لأنهم يؤمنان بالإشرق والمعرفه التى تستلهم بالنأمل
 والرياضه رقد ظهرت توحبهات هدين الفيلسوفين المعتدلين فى راء
 القدس توما الإكويينى وألبرت الكبير ، ولم تخف مع ذلك توجيهات ابن سين
 بنفسه فيما كتبه ألبرت الكبير عن « لمعرفة » على الخصوص بل بقيت لابن
 رشد أيضا توجيهاته القويه فى مدرس الفلسفه الأوربيه قرونًا عده بعد
 تحريم كتبه وشهار هذا لحرمان فى لعالم المسيحي كنه ، ولم يزل عزير
 المكانه على المفكرين والمتفلسفين إلى عهد النهضه الفلسفيه الحديثه بعد
 موته بعده قرون ومن طريف ما يروى فى ذلك أن الفيلسوف الألمانى
 فردريك أوبرفيج Friedrich Ueberweg نصدى لنبرئته من تهمة الكفر التى
 رماء به بعض المتشددين من فقهاء المسلمين فقال إن القرآن نزل على
 سبعة أحرف ، وقيل على سبعين وقيل على سبعمائه فإذا وقف العمة عند
 حرفه الظاهر فسن تخلص الأحرف التى يفهمها الخاصة من موافقه بينها وبين
 معانى الحكمة الحقيقه وأسرار لفلسفه العوبصه .

* * *

ويظهر - والضر من الأوربيين قبل الشرقيين - أن الفسوف نصوى
 محبى الدين بن عربى كن له أثر كبير فى عقول النساك والمتصوفة من
 فقهاء المسيحية الذين ظهروا بعده . فإبه نشأ فى مدينة مرسية قبل
 ختام القرن الثانى عشر للميلاد واسقر من دراسه علوم الكلام ومذهب
 الفلسفة إلى الرياضة الصوفية والإيمان بوحدة لوجود ، وقد حبه إلى
 المسيحيين أنه وحد بين الأديان كما وحد بين حقائق الوجود ، فقل
عقد الخلائق فى الإله عقانداً أنا اعتقدت جميع ما اعتقلوه
 وهو القائل .

لقد كتبت قبل اليوم أنكر صاحبى إذا لم يكن بيتى إلى بينه دان
 لتصبح قلبى قابلاً كل صورة فعرى لغزلان وديراً لرهبان
 وبيتاً لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
 أدين بدين الحب أنى توجهت ركانبه فالحب دينى وإيمانى
 ويرى الأستاذ أسين بلاسوس الإسبانى Asin Palacios أن
 بزعات دانتى الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محبى الدين
 بغير تصرف كثير .

ومن المعروف أن أول لفلاسفة الصوفيين من الغربيين وهو حوهر
 أكهارب الألمانى قد نشأ فى القرن التالى لعصر ابن العربى ودرس فى
 جامعة باريس وفى الجامعة التى كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية فى
 الحكمة والعلوم ، وأكهارت يقول كما يقول ابن العربى إن الله هو الوجود
 لحق ولا موجود سواه ، وإن الحقيقة الإلهية فى جميع الأشياء ولا سيما
 روح الإنسان التى مصيرها إلى الاتصال بالله من طريق الرياضة
 والمعرفة والتسبيح وإن صلة الروح باله أزم من صلة امادة بالصورة
 والأجزاء بالكل والأعضاء بالأجسام .

ومن هذه الفلسفة قسرات واضحة فى مذهب «سبيوزا» الذى نشأ
 فى مولدة وأصله من يهود سريغال الذين أكرهوا على الدين
 بالمسيحية فقد كان كلامه عن الذات والصفات ونجلي الخالق هى

مخلوقات وتلقى الحلق نور المعرفة الصحيحة بالصيرة وإلهام نسخة من فلسفة المتصوفة المسلمين مع قبيل من التحوير وإذا جار أن يكون أكهارت وسبينور قد استقى بعض هذه المعتقدات والآراء من الأفوطينة الإسكندرية مباشرة ، فليس مما يجوز فيه الشك أن فيلسوف المتصوف الإسدي «رامود لول» قد اقتبس من ابن عربي حصة في كتبه أسماء الله الحسنى ، لأنه كان يحسن العربية وعاش بعد ابن عربي بقرن واحد وجعل أسماء الله مائة وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل ذلك .

* * *

وقد ترخى الرمح بين فلاسفة النول الإسلامية والفلاسفة العصريين . وقرن من فلاسفة هذا العصر من اطلع على كتب فلاسفة الأسدلس وفلاسفة الشرق لإسلامي كما يطبع على الفلسفة ليونانية القديمة في كتبها الأصيلة ، ولكن الآراء الفلسفية التي قام بها أمثال الفارابي والكندي وابن سينا والعزالي وابن رشد وابن طفيل لا تعد عربية كل الغرابة عن مذاهب العصر الحديث ، لأنها لم تخل من راء تكلم فيها أساطين الفلسفة الإسلامية وعرضوا بها ، ما بالإسهاب أو بالإيجاز فالقائلون قديماً بالعقر ايهولاسي والعقر الفعال يذهبون إلى قول قريب جداً من قول كانت عن ظاهرة الأشياء Phenomena وحقيقة الأشياء في نواتها Noumena وهي الحقائق التي يستحيل النفاذ إليها بالعقل والتفكير وإنما بحقيقته في ذاتها ندرك تلك المجهولات من طريق الإلهام الأدي وهو شيء قريب من إلهام المتصوفين

وداعيد هيوم بقول إن حصول الأشياء في ترتيب معين مرة أو ألف مرة لا يستلزم أن يكون السبب منها علة لمسوق وسبب لوجوده . وهذا بتفصيله ما قد سبق إليه العزالي حين قال في تهافت الفلاسفة «إن الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبب وما يعتقد مسبب ليس ضرورياً عندنا ، بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفي الآخر فليس من

ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل ابرى والشرب ، و الشبع والاكل ، والاحتراق وبقاء النار ، والنور وطبوع الشمس ، والموت وحرز الرقبة و الشفاء وشرب الدواء . وإسهل الطرق واستعمال المسهل وهم حرز إلى كل لمشاهدات من المقتربات في الطب وانحوم و اصناعات و لحرف وإن افتراها لما سبق من تقدير اليه سبحانه لخلقها على التساوي لا لكونه ضرورياً في نفسه عبر قابل الموت ، بل تقدير ، وفي المقدور خلق الشبع دون الأكل وخلق الموت دون حر الرقبة وإدامة الحياة مع حر الرقبة ، وهلم جرأ إلى جميع المقتربات » ، ثم فصل القول في هذا على ثلاث مقامات من أدق ما كتب المفكرون في حقائق التعليل .

و اتخذ المصلحة قياساً للحقيقة مذهب عرص له اس رشد - قبل ولإمام جيمز - حين تكلم في ختام «تهافت انتهاب» عن شرائع وحقيقتهم ولرومها و «أن الجميع متفقون على أن مبادئ العمل يجب أن تؤخذ تقليداً إذ كان لا سبيل إلى البرهان على وحيوب العمر إلا بوجود الفضائل الحاصلة من الأعمال الخلقة والعصمة . وإن الحكماء يرون في الشرائع هذا الرأي أعنى أن يتخذ من الأنساء والوصعين مبادئ العمر والسنن المشروعة في ملة ملة وامنحج عندهم من هذه المبادئ الضرورية هو ما كان منها أحت للجمهور على الأعمال نفاصلة حتى يكون الناشئون عليها أتم فضيلة من الناشئين على غيرها . مثل كون الصلوات عند . فإنه لا شك في أن الصلوات تنهى عن لفحشاء والمكر كما قال تعالى وإن الصلاة الموضوع في هذه لشريعة يوجد فيها هذا الفعل أتم منه في سائر الصلوات الموضوع في سائر شرائع ، وذلك بها شروط في عدها ووقاتها وأنكارها وسائر ما شرط فيها من لطهرة وعن سرك ، أعنى ترك الأفعال والأقوال المفسده لها وكذلك الأمر عند قبر في المعاد منها هو أحت على الأعمال الفاضلة مما قبل في غيرها »

وسيدورا يقول بوحدة المادة والروح وهذه هي الفلسفة التي شرحها قبله ابن جبرول الأندلسي في كتابه يسوع الحياة ، وأقام الدليل عليها

وحدة العلة والمعلول في الصبيحة أو في بعض أجزائها ، وإلا انتهى تأثير العقل في الجسد أو تأثير الروح في المادة

ومن المشابهات غير العديدة أن الأقدمين يقولون بتلازم الزمان والمكان وأيتشتين بقول بأن الزمان هو البعد الرابع من أبعاد المكان

ومنها ما نصح أن يسمى الطور الأول لمذهب التطور ، وقد عبر عنه لفارابي حيث قال في آراء أهل المدينة الفاضلة معسراً لأقوال المعلم الأول إن «ترتيب هذه الموجودات هو أن تقدم أولاً أخسها ثم الأفضل فالأفضل إلى أن ننهي إلى أفضلها الذي لا أفضل منه فأخسها المادة الأولى المشتركة والأفضل منها لأسطقسات ثم المعدية ثم النبات ثم الحيوان عبر الناطق وليس بعد الناطق أفضل منه»

وقد توسع الملاحقون في القول بالتدرج نصاً والإشارة إلى بعض المشابهة بين الفرد والإنسان فقل ابن خلدون «نظر إلى عالم التكوين كلف ابتداء من المعدن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة مدجج من التدرج وآخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا يذر له وآخر أفق النبات مثل النخل وكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحنزون والصدف ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكوّنات أن حر أمق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن بصير أول أفق الذي بعده ، واتسع عالم لحيوان وبعدهت أنواعه وانتهى في تدرج الكويبي إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم الفرة الذي اجتمع فيه الحي والإدراك ولم يبق إلا الفكر والروية بالفعل ، وكان ذلك أول أفق الإنسان من بعده ، وهذا غاية شهودنا»

و لمشهور عن ديكارت أنه أمام الفلسفة الأوربية الحديثة ، وهو مسبووق إلى ثلاث من أهم قضاياها الفلسفية فيما كتبه الغرالي وابن سينا على الخصوص فإن الغرالي بقول بأن الشك أول مراتب اليقين ، والشك هو مقدمه الفلسفة الديكارتية إلى إبراهيم النعسي وأول هذه إبراهيم النعسي عند ديكارت هو قصصته التي يثبت بها الوجود فيقول «أنا أفكر فأن موجود» وهي معنيتها قضية الإنسان المعلق بالقضاء كما

عبر عنه ابن سينا حين تصدى لإثبات «الآنية» أي وجود النفس بمعزل عن الموجودات الخارجية فقال إننا لو علقنا إنساناً في الفضاء لا يتصر عضو منه بعضو ولا تقع حاسه منه على موجود لشعر بأنيته ، أو شعر بذاته ، وتأتي بعد ذلك مسألة الموجودات وحدتها بعد وجودها ، إلى السعة الإلهية لدوام قوة الوجود فيها ، فهي لا تكسب لإحدى مرة واحدة بل تكسبه على سجدد بصفة فباصرة من له جل وعلا ، وهذا هو مذهب ابن سينا وديكارت بلا اختلاف

* * *

ويخطئ من يرى أن كل ما تركه فلاسفة المسلمين قد نقلوه قبل ذلك بحرفه عن فلاسفة اليونان فقد وجد من الفلاسفة ، لإسلاميين من تصرف واستقل برأيه كم وجد منهم من وقف عن النقل والتفسير وأكثرهم قد تلقوا مذاهب الأولين على أنها عمل قابس للتعديل وليس على أنها قضية مسلمة لا يأتبها ليأطل بحال .

فالغرض لي مثلاً كان على علم وثيق بأصول لمنصق وكن من أقدر المفكرين السابقين واللاحقين على مدقشة البراهين اليونانية بمثلها أو بما يفوقها ووصوحاً في بعض القصايا العقلية

وابن سينا لا يرضى على مذاهب المشائين كـ الرضى فيتخذ له منطقاً مقابلاً لمطفهم يسميه «منطق المشرقيين» ويقول في مقدمته

« . ولا ببالى من مفارقة تظهر منها لما ألقه متعلمو كتب اليونانيين إلفاً عن علة وقلة فهم ، ولما سمع منا في كتب ألفاها للعالميين من المتفلسفة المشعوفين بالمشائين الظالمين أن الله لم يهد إلا إياهم . »

وقد أخذ البيروني على أرسطو في أسئلة لابن سينا أنه يعتقد بآراء الأقدمين « وأنه جعل أقاويل القرون الماضية والأحقب أسالفة في افلك ووجودهم إياه على ما وجده عليه حجة قوية »

وقار عن أرسطو به يرى « أن الشكل البضى والعيسى محتجان في الحركة المستديرة إلى فرغ وموضع حال وأن لكرة لا تحتاج إلى فلك وليس الأمر كما ذكره » فاستصوب ابن سينا انتقاده وذكر له أعذار

لمفسرين ومنها ما رواه عن تيمستوريوس في تفسيره لكتاب السماء إذ يوصي بأن يحسن قول لقيسوف على أحسن لوجوه وأشباه هذه المساقصات كثرة في كتب الفلاسفة وامتصوفة وعلماء الكلام ، فليس في أفوار الفلاسفة اكبار ما يسوغ رميهم بالنقص والتقص بالمقول ، ولا يستثنى منهم ابن رشد وهو أشدهم إكباراً لأرسطو لأنه كان يتناول بعض ما يستقل عنه بعض بهديب

وهنا مجال لكلمة ثقل وينال في فيها التقبضان على خطأ واحد فإن لذين يشنون أخذ لإسلاميين عن اليونان هم كالذين ينكرون ذلك إذا اعتقدوا فيه غضاضة على الأخذين ، كائناً ما كان مقدار ما أخذوه إذ لا يطلب من أمة أن تهتدع ثقافه جديدة بنقطع عن جميع الثقافات الأولى ، ولا يعاب عليها أنها تهج إلى المعرفة حيثما وصلت إليها ، وإنما يعاب عليها أن تتطعم شعلة لثقافة الانسانية في يديها وأن تنقطع عنها لسلسلة التي اتصلت من مبدأ التاريخ الانساني إلى أن بلغتها ، وأجمل ما يذكر بالثناء للفلاسفة لإسلاميين في هذا المقام أنهم نسوا كل مقال إني صاحبه ولم يسكوا عن الاشادة بفضله كلف عرفوه وحققوه خلافاً لما جرى عليه لإغريق فيما أخذوه من علوم الحضارات الأولى ، وأن الفلسفة لم تكن في العالم الاسلامي من عمل الحكماء دون غيرهم بل كانت عملاً مشاعاً بين كثير من المنعمين وشباه المنعمين . ومن أجل هذا دعت لحاجة إلى المنصريات هي محاليس خاصة وكتابة لرسائل في المساحلات ولربود ، مما لم يسبق له بضر بين اليونان معاصريهم في الزمن القديم

* * *

هذه لفلسفة - أو لفلسفة الصوفية على الخصوص - هي الطريق التي ظهر منها ما صهر من آثار التفكير الجديد في العالم لمسيحي وفي العقائد الأوربية على الإجمال

ثم بعد ذلك على مصدر هذه الآثار تضرع واحدة هي أرقام السنين التي ازدهر فيها للاهوت لمسيحي ونحنت فيها دعوة لإصلاح لديني

واشتدت فيها أحملة على الرهبانية ، وأعقبها ذلك ، الترخص المطرد في قيود البسك وقيود الزواج فلم يحدث شيء من ذلك كله قبل احتكاك أوربة بالحضارة لعربية تارة في لأندلس وتارة في أثناء الصروب الصيبية ، ولنت لمشكلات العقلية والدينية وما يرتبط بها من مشكلات الاجتماعية - كامنة في بلاد لأوربية لا تتسع لها فسحة للظهور والتماس العلاج والتعديل

فلما تو إلى الاحتكاك بين المجتمع العربي والمجتمع الأوربي ، وتو إلى معه الاحتكاك بين العقول والعقائد ، تو إلى كذلك ظهور الفهم الجديد والنزعة الجديدة إلى التفسير والإصلاح على نمط غير الباط الأوربي العتيق ، وجاء الباحثون الأوربيون بما يوافق الفلسفة العربية أحياناً وبخالفها أحياناً أخرى ، ولكن لمخالفة لا تنفي مصدر التنبيه ولا تدحض البعث على التفكير الجديد ،

فالقدس توما الأكويني أكبر فلاسفة اللاهوت المسيحي في القرون الوسطى ولد في سنة ١٢٢٥ وتوفي في سنة ١٢٧٤ وألف كنه بعد شاعت بين اربها و لقسوس دروس لفلسفة الأندلسيين وفلسفة المشرق من لمسلعين ، ولم يكن في كل ما كتب في الله و لروح ووسائل الوصول إلى لحقيقة رأي واحد لم يتناوله بين سيب والفزلى و من رشد على لخصوص وكل ما استجد من حلالماته فهو تلك لخلافات التي نفى بها لفارق بين أصول لمسيحيه وأصول الإسلام ، وقد سعى المسمون الفزالي حجة لإسلام وسمى دانتى القدس توماس قسناً من بور السماء ، لأنهما قدم بعمل واحد هي مياقثة أرسطو وأفلاطون وتغلب لعقيدة الإلهية على مواضع الشك من لفلسفة المادية، ولكن لمقالة بين آراء الحكيمين خليفة أن تندى لت لوهلة لأوى أيهما صاحب اسبق في الزمن والاستقلال ، وعلى الرغم من ردود القديس توما شاعت مذاهب العرب بين الرهبان ولا سيم ، لفرسبنسكان وبحدى عشاق هذه المواهب قرر الحرم لصريح الذى أصدره مجمع باريس

للاهوتى سنة ١٢٦٩ فى حق كل من يردد كلام من رشد على
 لخصوص - فى النفس والإسان الأول والقدم والحوث
 واتصلت الدراسات لفسفية والصوفية بين رجال الكنيسة فكن من
 ثارها تلك الحملة القوية على نظام الرهبانية ، ونعزرت هذه لرحلة فى
 السئات الدينية بحملة أخرى فى السئات الأدبية قام بها أديب إيطالى
 بدر للثقافة العربية بمؤلفه الكبر الذى نسج منه على منوال ألف ليلة
 وليلة وهو «الدكامرون» وعرض منه الرهبة للعمر والتشهير
 فلم ينته القرن خامس عشر حتى كانت مسألة الرهبانية قد وصلت
 إلى الحقترق الحاسم بين مذهبين فصدر مجمع «ترينت» (١٥٤٥)
 قرر به بتحريم الزواج على رجال سين من جميع لرتب والدرجات ،
 وبزواج «لوثر» إمام المذهب الإنجلى براهية كاثوليكية قبل ذلك على
 سبيل النحدى و لاحتجاج ، وكان لوثر من أكثر الناس طلاعاً على
 فسفة ، لقرون لوسصى ، لأنه كان أسد للفسفة فى جامعة وينمرج .
 ولم يكن غريباً عن مناقشات علماء اللاهوت وعلماء الكلام
 ولقد برحم لوثر التوراة إلى اللغة الجرمانية بعد أن حارب لاسلمية على
 لغة لدين والعلم مدت لستين ، ولم بحصم قيوده المرهقة إلا ذلك الإقبل
 لمطرر على دراسة العربية بين من كانوا قبل ذلك هقصعين لدراسة لادبية
 مترعين على اكتابة بلغاتهم الوطنية ، وأفرط الناشئون فى الإعراس عن
 اللاتينية حتى سكا من فراضهم هذا ، بعض الجامدين ونعى على قومه بال
 السحول الحطير كما جاء فى كتاب بورى عن إسبانيا الإسلامية

* * *

وعد أشهر الأستاذ سكولسون فى كتاب «نرت الإسلام» إلى لشابهايات
 بين أقوال لصوفية لمسلمين وأهوال الصوفية الأوربيين من ، لأقدمين مثل
 اكهارت الألمانى والمحدثين كاربستر الإنجلىرى ، وتوسع فى مقاله القيم
 فى متابعة العلاقة بين صوفية المسيحية وصوفية الإسلام . وليس
 العجب أن تثبت هذه العلاقة التى يستزمها ، لمنطق والتاريخ ، ولكن

العجب أن ينقّبها من يعلم أن العرب أقاموا في الأندلس عدة قرون وأن دروسهم حضرها رجال الدين والدنف هذك ، وأن كتبهم قرأها الباحثون في الأسيرة والجامعات ، وأن النهضة الأوربية لم تظهر لها علامة واحدة قبل هذا الاحتكاك بينهم وبين الأوربيين .

ولمبالغ هنا طرفن متقابلان ينساويان في الصلال عن لحق ومجاهة الإنصاف ، وهم أن يقال أن الصوفية لتي تلقاه الأوربيون عن العرب هي صوفية أجنبية لا فضل للعرب فيها ولا تشمل في أصولها على مزية من مزايا الروح العربية ، وأن يقار من الجهة الأخرى إنها عربية محض لا مشركة فيها للشعوب الأخرى

فهذا وذلك بطلان على السواء .

لأن أشواق الروح الإنسانية فسط مشترك بين بني آدم لا تتفرد به به من الأمم ولا تخلو منه أمة من الأمم ، ولم نسو عنها عقيدة واحدة كرس ، لاستيعاب دون سائر العقائد الدينية .

و لصوفية العربية مارجت صوفية الهند لقديمة وصوفية لأفلوطينيين بإسكندرية ، ولكنها أضافت إليها كما أخذت منها ، ولا حاجة بنا إلى بعقب ، لتواريخ والأسانيد لتقرير هذه الحقيقة البينة ، فإن عبد صر الصوفية الإسلامية مبنية في آيات القرآن لكريم محيطه بالأصول التي تهرعت عليها صوفية البوذية والأفلوطينية ، والمسلم يقرأ في كتابه أن «ليس كمثله شيء» وهو السميع البصير» فيقرأ خلاصة العلم الذي يعلمه دارس اللاهوت في كتب القديس توما حيث يقول إن الله مدبر للحوادث وإنه يعلم بالتتريه ولا يبعد عن مشيئتها أو بعزم «بف ليس هو» ولا يعزم بما هو عليه هي ذاته أو صفاته ، أيًا كان لمصدر الأول الذي استقى منه القديس توما أصول هذه العقيدة .

ويقرأ المسلم في كتابه «ففرؤا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين» فيعلم ما يعلمه تلاميذ المتصوفة البوذيين حين يؤمنون بأن ملايسة العالم تكدر سعادة الروح وإن الفرار إلى الله هو باب النجاة

ويقرأ المسلم في كتابه أن الله «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» و«كل شيء هالك إلا وجهه» ، فلا يزيد المتصوفة شيئاً حين يقولون له ، يا الله أرني أيدى قديم بغير زمان ولا مكان ، عليم بالكلية والجزئيات ،

ويقرأ المسلم في كتابه أن «الله نور السموات والأرض» ، «وسه المشرق والمغرب ماإنما تولوا فثم وجه الله» «ونحن أقرب إليه من حسب ابوريس» فلا يزيد المتصوفة إلا لتفسير حين يقولون إن لوجود حقيقي هو وجود الله وأنه أقرب إلى الإنسان من نفسه لأنه قائم في كل مكان يصل له كل كائن «ومن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا يفقهون تسبيحهم»

والله بخلق ويأمر فهو فعال مريد وليست إرادته مانعة من الخلق كما يرى بفلاسفة إذ يقولون إن الإرادة القديعة لا ينشأ منها ، اعتبار حيث أو مخلوق حادث «آلا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» .

ومما يعلمه المسلم من كذبه أن عقل الإنسان لا يدرك من الله إلا ما يلهمه إياه لأنه تعالى «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء» .

ومنه يعلم الخلاف ما بين عالم الظاهر وعالم الباطن أو عالم الحقيقة وعالم الشريعة ، لأنه يقرأ مثلاً واضحاً لهذا الخلاف فيما كان بين الحضر وموسى عليهما السلام من خلاف « فوجدنا عبداً من عبادنا أتته رحمة من عبداً وعلمناه من لدنا علماً قال له موسى هل أتبعك على أن تعبدني مما علمت رشداً ، قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ، قال سجدني إن شاء الله صبراً ولا أعصى لك أمراً ، قال فبئرا نصرتي فلا تسألني عن شيء - حتى أحدث له منه ذكراً - فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قل أحرقتها ستغرق أهلها فقد جئت بشئاً إمرأاً قال ألم أقل إنك لن تستطيع

معى صبراً قال لا توحذى بما سيب ولا ترهقنى من أمرى عسراً
فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فعنته قال أقتلب نساء ركية بغير نفس لقد
حببت شيئاً بكرة قال ام قل لك بك لى يستطيع معى صبراً قال إن
سألتك عن شىء بعدد فلا تصاحبنى قد بلغ من لدنى عدراً ، فانطلقا
حتى إذا أتيا أهل قرية استطعم أهلها فابوا أن يصيفوهم فوحدا فيها
حدراً يريد أن ينقص مقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً قال
هذا هراق بيسى وبينك سانبك بنأول ما لم تستطع عليه صبراً أما
السفينة فكانت لمساكين يعمرون فى البحر فردت أن أعينها وكان
وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين
فحسبنا أن يرهبهما طغيان وكفراً ، فأتدريا أن نثلهما ربهما خيراً منه
ركاة وأقرب رحمةً وأما الحداد فكان لعلامتين يتيمين فى المدينة وكان
نحته كنزاً بهما وكان أبوهما صالحاً فأراد أن يبلغا أشدهما
ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعنته عن أمرى ذلك تؤبر ما لم
تستطع عليه صبراً» .

وهذه آيات بيذت يقرؤها جميع ، المسمين فى كتابهم الذى لا يخلص
به هريق منهم دون هريق ، وبينهم ولا شك أناس مطبوعون على التصرف
واسخر ج الأسرار الخفية والمعاني لروحبة من طوايا الكلمات فبدأ
عمد هؤلاء إلى تفسير تلك الآيات وما هى معاسها فليس أيسر عليهم من
الوصول إلى باب التصوف الذى شفت به حواضر الحكماء فى جميع
، لاحتل وبين جميع الأحاس ، وعندهم من هـ لفسط وحده ما يجعلهم
أصلاء فى الفلسفة الربانية ويجعل لهم فيها شيئاً يفتنونه إلى الأمم ،
غير ما استعاروه من حكماء الهند أو حكماء لاسكدرية

أحوال الحضارة

بعض الكلمات أدل من طوال المحادثات ،

ومن هذا القبيل تلك الكلمات التي تنتقل من لغة قوم إلى لغة قوم ،
آخرين فتدل على ما انتقل معها من أحوال المعيشة وآلوان الحضارة ،
وتبسط بنا هي قليل من المفردات ذلك الفرق البعيد في شئون الأمة بين
ما كانت عليه قبل اقتباس تلك الكلمات لمعبودات وبعد اقتباسها
وتداولها في أحاديثها اليومية

وهي لغات الأوربيين كلمات لها مثل هذه الدلالة على أثر المعيشة
العربية في المعيشة لأوربيه ، وبالمعشرة أو الاتباع في الحكم أو
تبادل التجارة

منها الكلمات الدالة على القطن Coton أو على الحرير الموصلي
Muslin أو الحرير لغري Gause أو الحرير الدمشقي Damas أو لجلد
القرطبي Cordovan أو الجند المركشي Morocco أو الجبة Jupe أو
العسك Musk أو العطر Attard أو الزعفران Saffron أو لشراب Syrup
أو الجرة Jar أو الحنفى بمعنى الحفد الطويل Sofa أو لأر Ree أو
لمرتقال من الـارنج Orange أو الليمون Lemon أو السكر Sugar أو
القهوة Coffee أو افنوة Condy إلى أشبه هذه المفردات

وفد شاعت هذه لمفردات في الإنجليزية والفرنسية وبعض اللغات
الأوربية الأخرى أما الذي حل لإسبانية والبرتغالية من الكلمات الدالة
على أحوال المعيشة فقد يحصى بالآلاف ولا يقصر على العشرات ومنها
المقعد Gaban والبياء Abani و لمحرن Amacen والقصران Aquarar
و لسطيحة Azulea والطريخة Al Tama و لفندق Fonda والطحون Ta
hone والحر الكريم أو الجوهر Alhaja و لبراءة Albaran والكراء Al-
quler و لقبه Alcoba والساقية Assaquya وبعض المكيب كالغبيقة وهي

بعرارة Fanega والثماني Ceremines والقطيفة Alcatifa والربعة Arroba ولجذب Algibeira و الخياط Afate والرطل Arratel وألفاظ كثيرة من سماء الحاحيات المتداولة أو الأعلام على المواقع والبلاد وليس كل لشأن في انتقال هذه المفردات إلى الإسبانية أو البرتغالية أنها صفحات زينت على معجم اللعنين وإنما الشأن الصحيح فيها أنها دليل على صبغة المعيشة العربية التي اصطفت بها تلك البلاد وكل بلد غيرها فتنسب مثل هذا لاقتباس أو بعض هذا الاقتباس ، وأنها مقياس الفارق بين أحوال الأمم الأوربية قبل اتصالها بالحضارة العربية وبعد شيوع هذا الاتصال

ولم تكن الجزيرة الأندلسية هي معجزة الوحيد بين القارة الأوربية والحضارة العربية . لأن القوافل التي تنقل البضائع من آسيا الغربية إلى أوربة الشرقية لم تنقطع كل الانقطاع في عصر من العصور . ولأن الأوربيين قد عرفوا الشيء الكثير عن الشرق في إبان الحروب الصليبية ولكن لجزيرة الأندلسية هي لقطر الوحيد الذي يقال فيه على التحقيق إنه لم يعرف به عصر أذهباً في تاريخه كله غير العصر الذهبي الذي راه في أيام الدولة العربية ، لراهرة ، ولا استثناء في ذلك لعهد قسب الثاني وما كان فيه من مظاهر الأنبة والرخاء ، لأنه كان رخاء مستعاراً من تحيرات التي تدفقت على إسبانيا من مستعمراتها لأفريقية بعد كشف العالم الجديد ولم يكن رخاء محمولاً على حضارة تردهر فيها المعارف لإنسانيته وبفتق فيها عقول الأمة عن فتح مبتكر يسبب إلى أهل البلاد في عصر الأندلس ، الدهى كبت المدن الأندلسية أعمر المدن في القارة لأوربية من أقصدها إلى أقصدها . وكان في قرطبة وحدها دكان نسج واحد يستخدم مائة وسبعين جارية في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة ، وكان قصر الخليفة أربع مائة ألف كتاب ، وكان سادات أوربة يفتخرون بما يقتنونه من مسوحاتها أو مصنوعات لمعدنيه أو أية الفجار لى لا يعرف لها نظير في بلد آخر ، وكان عدد سكانها نحو ألف يسكنون نحو مائتين وخمسين ألف بيت . ولم تكن مدسة في أوربة تنوى إليها أكثر من ثلاثين ألفاً أو خمسين ألفاً على أكثر تقدير

والى قرصبة وزميلاتها غردطة وأشبلية وطليلة ومرسية ومالقة كانت تتجه ومود لعوامل الأوربيين فى طلب الأنوية أو التحف أو أدوات الترف والزينة وفرق الموسيقى والغناء ، وأحمل بعض هذا المؤرخ الإحليزى استأنلى لاين بول ، فقال « إن حكم عبد الرحيم الثالث الذى قارب خمسين سنة أضر عى أحوال إسبانيا تجديداً لا يلم الخيال على أجمع ما يكون - بحقيقة فحواه » ..

ولا نعرف شهادة لهذا العصر الذهبى أعظم ولا أصدق من ذلك الحنين الذى يذكره به غلاة الوطنيين الإسبان وكبر كتابهم حين يلتفون إلى ماضى بلادهم ويتمنون لها حاضراً كماضيها فى أيام الدولة العربية فلم تتجب إسبانيا فى عصرها الحديث وطنياً غوراً ولا كاتباً مبرراً أشهر من بلاسكو أناسز لدى توفى مند بضع سنوات وبكك لا نقرأ لعربى ولا شرقى كلام فى الإشادة الحماسية بمجد العرب الأندلسيين كالذى نقرؤه لهذا الكتب الباه فى أهم مصنفاته وهى « طلال الكنيسة » حيث يقول « .. لقد أحسست أسباب استقبال أولئك الرجل الذين قدموا إلينا من القارة الإفريقية ، وأسماهم ، لقرى أزمتها بغير مقاومة ولا عدا ، فما هو إلا أن تقترب كوكبة من فرسان بحرب من إحدى القرى حتى تفتح لها الأبواب وتتلقاها بالترحاب وكانت عزوة نمدين ولم تكن عزوة فتع وتدوخ ولم يرل ميل المهاجرين يتدفق من جانب المضيق وتستقر معه تلك الثقافة الغنية الموصدة الأركان بابضة بالحيرة ، بعيدة الشوط ، ولدت متبصرة ويث فيها لى حمية قدسية واجتمع إليها أفصر ما فى وحى بنى إسرائيل وعلم برنصة وتراث الهند ونخائر فارس و لصير ، وهكذا تسرب الشرق إلى أوربة على نهج غير نهج دردا وروكسيس من قيس أثد التى قاومته خوفاً على حريتها وإنما اختار له هى هذه المرة بهجاً مقابلاً لأثيت من لدحة الغربية وهو لجزيرة الأندلسية حيث سيطر الملوك « اللاهوتيين » والقساوسة لمجاهدين قتلته مفتوحة أذراعين

« وفى حلال سنين اثنتين استولى الغزاة على ملك قضى مستردوه سبعة قرون كاملة فى استردده ، ولم يكن فى الوقع فتحاً عرض على

الناس برهبة السلاح ، بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة ، ولم يتخلى أبناء تلك الحضارة رمزاً عن فضيلة حرية الضمير وهي الدعامة التي تقوم عليها كل عظمة حقبة للشعوب . فقبلوا في المدن التي مبكوها كنائس النصرى وبيع اليهود . ولم يخش المسجد معابد الأديان سوى سيفه . فعرف لها حقها واستقر إلى جانبها غير حاسد لها ولا راعى في لئساده عليها ، ريمت على هذا ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر أجمع الحضارات وأعناها في القرون الوسطى ، وفي الزمن الذي كانت أمم الشمال مرسية لبقتن لدينية ولمعارك لهمجية يعيشون عيشة لقيابل المستوحشة في بلادهم بتخلقة كان سكان إسبانيا يزداون هيريدون على ثلاثين مليوناً تتسحم بينهم جميع لعناصر بشرية والعقائد لبيمية ، وحقق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التي عرفها تريخ الجماعات البشرية ، فلا يرى بها قريباً تقبله به غير ما تجده في الولايات المتحدة الأمريكية من تنوع الأجناس واتصال الحركة والنشاط ، فعاشت في الجزيره الأندلسية طوائف من النصرى و لمسلمين واهل الجزيرة والشام وأهل مصر والمغرب ويهود إسبانيا والشرق فكان منهم ذلك المريح الذي تضمن منه المستعربون والمدجنون والمولتون وعاشت بفضل هذا التفاعم الحى بين العناصر ولعروف جميع الآراء والعادات ولكتشوف لعلماء ولامعارف والفنون و لصناعات وابتكرعات الحديثة والأنظمة بقديم ، وانبثقت من تجاوب هذه بقوى مواهب الإبداع والتجديد ، ووصص من اشرق بحرر والقطن والقهوة والورق والسمون والبرتقال و لرمات والسكر مع هؤلاء الواقدين ، كما وصلت السحاجيد والمبسوحات و لبارود والمعادن المنفوشة ، واهدت عنه احساب العشرى واحبر والكمباء والطب وعلم الفلك والشعر المقفى . وبجا الفلاسفة الإغريق من لصيدع في عمرة التسبان حيث تنعوا العربى في متوحه وغزوانه ، فتربع أرسطو في جامعة قرطبة التي ذاعت شهرتها في الآفاق ، وظهرت بين العرب الأندلسيين فكرة الفروسية التي تنفها فيم بعد رحا لشماس كأنها ميرة مقصورة على الأمم المسحبة

وبينما كانت شعوب العرجة والسكسون والجرمان يعيشون في
الأكواخ ويعتلى ملوكهم وأشراقتهم قمم الصخور في القلاع المظلمة ،
ومن حولهم رجالهم هم عائلة عليهم يلسون الرود وتأكلون صعدم الإنسان
الأول قبل التاريخ كان العرب الأندلسيون يشيدون قصورهم القوراء
ويرودون أحدهم كما كان سرارة رومة يرودوها من قبل للمساجلة في
مسائل العلم والأدب وتتأشد الأشعار وتنقل الأخبار

«وكلما انس راض من نفسه رغبة في العلم ختلف إلى الجامعات
العربية أو لمجامع الإسرائيكية في إسبانيا ، ووقر في أخلاص الموك
والأمراء أنهم مرء و من أمر ضهم لا محالة إذا أسعدهم الحط صيب
إسباني مهمأ يكلفهم ذلك .

«ثم انفسر العصر لوطني عن العراة وجمعت القوميات المسيحية
الصغيرة فاشتبك العرب والإسبان في حروب سجال لا تنتهى إلى الإبادة
والاستئصال بعد الانتصار ، وأضمركل منهم لصاحبه احتراماً عميقاً
فهو يعاهده على فترة طويلة من فترات السهم كأنهم يحاولون بذلك تأجيل
تلك اللحظة التي يحم فيها الفراق الأخير ويعبره خلال ذلك في بعض
الأصل التي تفكر إلى اشتراك اليهود

«ولقد عمت الحرية في ذلك العهد أقاليم إسباني المسيحية نفسها قبل
أورة الشمالية برمن طويل ، واستقبت بتنظيم أسورها المالبة ، وجعلت
لملك أو الأمير بمقام ربه لعسكرية ، وأصبح المقاطعات
كالجمهوريات الصغيره ، التي يتولاها حكمها المنتخبون وكن
المبصوعون في المدر قدوة مثلى للجيش الديمقراطية ، وكانت الكنيسة
المسيحية وهي على اتصال بالشعب تعيش بسلام في حوار الأديان
المختلفة ، وجمعت في الأمة طبقة وسطى فعالة فأدعت الصباعات
لمتعددة وأشئت على اسواحد أعظم قوة بحرية في زمانها ، وراحت
المنتجاة ، لإسبانية في جميع لمرافئ الأوربية ، وقامت في البلاد مدن
تضرع في عدد سكانها الحواضر الحديثة ، واختصت بعض القرى
بمعامل النسيج ، وورعت ، لأرض في شبه الجزيرة بأسرها

«وقد ارتقى العرش ملوك الكتلكتة في الوقت الذي بلغت فيه القوى الوطنية أوجها ، وإنهم يرجع طول ملكهم إلى موارد القرون الوسطى الفياضة بالإبداع ، المخزونة في ورائع العصور السابقة

«إلا أنه كان ملكاً مشنوماً بغيص العواهب لأنه حاد بالسياسة الإسبانية عن سواء السبيل فاندفع بإسبانيا إلى العصب الممهور ونفع فيه دزعه التوسع في الاستعمار

«كانت إسبانيا يومئذ تنبؤاً لمكانة ، إلى تشاؤها بجلترة هي عهدنا الحاضر ، ولو إنها اتبعت سياسة التسامح الأدبي والتعاون بين الشعوب وواصلت عمل العرب اصناعي ولزراعي بدلاً من مغامرات الحرب ومصاعم الاستعمار لكان لنا اليوم شأن غير شائننا الذي وصلنا إليه

«وإن الطبع الإسباني لأبرز في عصر النهضة الأوربية من ، لصانع الإيطالي الذي ، تسعت به إيطاليا بما انعت فيها من آداب الأمم القديمة وقبور الإغريق ، فإن النهضة لم تقتصر على المبدعين الأوربية والفنية ، بل أخرجت إلى لعالم حضارة جديدة ستلايها وصناعاتها وجيوشها وعلومها وهذا كله من ثمرات إسبانيا العربية وإسبرئلية والمسيحية

«فالفائد لعالم القرطبي لكبير «جون سالفو» رسم خطط الحرب الحديثة وتفوق «بيرونوفرو» هي لهندسة واستخدمت لحوش الإسبانية الأسلحة النارية لأول مرة في التربيخ فكان استخدامها هو الذي خلق فرق المشاة وجعل من الحرب قوة ديمقراطية لأنه قدم الشعب على جماعة الفرسان الذين كانوا سحباء تلك لشكة العسكرية الأرستقراطية»

إلى أن يقول

«أسرعت دون إيربيللا بذلك التعصب الساسي الذي منلات به فأنشأت محاكم التفتيش ، واضطماً عن تم مصباح العلم في المسج والسعة وخفته هي لدير المسيحي ذباله العبدية لأن ، الساعة ساعة صلاة وقد ولت ساعة العلم والنزوب الفكرة الإسبانية في عيب الطبعات حيث ترتعد مرداً في عزلتها المضنية وتخوشاً قشيباً إلى أن تموت وإن

بقيت منها بقية فهي تلك التي تنصرف إلى لشعر والمسرح والجدل
لديني ، مذ كان العلم يقضى بصاحبه إلى نار الحريق .»

هذه الشهادة لإسبانية الصحبة شهادة تدير - للدول عربية
في الجزيرة الأندلسية هي خلاصة التاريخ لمتفق عليه ، وليست نحية
إعجاب وكفى من رجل منصف عنوثب الخيال

ولم يمر في هذه الخلاصة التاريخية أحد من المؤرخين المعول عليهم
سواء كانوا من العرب أو الأوربيين أو الإسبان ، لا أفراداً قلائل زعموا
أن الحضارة العربية في الأندلس قامت على أيدي أبنائها الأصلاء دون
الغرباء الوافدين عليها ، وهو زعم عجيب يوحى أول ما يوحى إلى الذهن
أن يسأل ولم لا تزدهر العنصرية الإسبانية إلا في ظل الحكومة العربية
فلا تؤتى ثمراتها قبل وفود العرب ولا يعد دهابهم وذهاب آثارهم في
العلم والصناعة والعمران ؟

وجواب هذا لسؤال سفي كل زعم يبهج به أمثال أولئك المكربين
العتصمين ، وبخاصة حين ترسلون زعمهم إرسالاً لا يؤيده اسم واحد من
أسماء أبناء البلاد الأصلاء الذين ساهموا مع العرب في أعمال لحكم
والتعمر أو كانت مساهمتهم دليلاً على مشاركة عامة متسعة النطاق .

وأول ما يستخلص من قيام الحضارة الأندلسية على هذا الوصف
المتفق عليه أن آثارها في أوربا كانت أعم وأعمق مما تسجله الكتب
المطولة أو الكلمات لمقتبسة ، لأننا نرى أعيننا في عصر الحاضر
كيف يكون أثر القوة بالسماع فضلاً عن القوة بالمعاشرة الطويلة بين
الشعوب ، وهذه الثورة الفرنسية قد حصلت أوربا وأسس وأهريفا
بمبادئها وحوثها ولما بتجاوز المطعون على حقيقتها اجاراً معدودين
في كل بلد من بلدان تلك القارات ، فإذا كانت انقاره الأوربية لا تغير
نظرتها إلى الحياة بعد معايشرة تلك الحضارة الأندلسية على
ستفاضتها وطول أمدتها فالتهمة قد تتجه إلى العنصر لأوربي ولا تتجه
إلى العنصر العربي أو الإسلامي بحال

وقد أصاب أبير حين قال إن عصر النهضة مدين للحضارة الأندلسية قبل الحضارة الإيطالية التي أعقبتها لأن عصر النهضة لم يكن عصر تجديد للفنون الإغريقية القديمة ولا مزيد على ذلك من عنده ، ولكنه كان عصر تجديد هي الحياة لعملية والسريع لصناعية وتجارية وفهم مستحدث لعقيدة والعالم للعلاقات بين الحكامين والمحكومين ، أو كن عصر معيشة جديدة تناولت بالتبدل ولتعيين طبقات لشعوب من العلية إلى السواد ، وأوى أن يأتي ذلك من القدوة لشعبية في جميع الشؤون العملية بعد اتصال العاصرة بين حضارة العرب وأنداء أوربة الغربية عدة قرون

وفي وسع الأرقام والألفاظ أن يحصى لنا آثار العرب في بعض العلوم أو بعض الصناعات ، ولكن آثار العرب في الحضارة العامة لا تسعصصها الأرقام ولا الألفاظ ولا هي موفوفة على استقصاء أرقام وآلفاظ ، لأن رعم لزعم أنها قد مصت غير تركبير يناقض العقل العشري كما يناقض لمشاهد والمحسوس وإسناد هذا الأثر إلى غيرها بلا مشاركة منها على الأقل بعسف لا يؤخذ به في سياق اساريخ وقد جعت النهضة بعد عهد الحضارة الأندلسية وجاء الإصلاح لدينى بعد النهضة ، وحاعت الحرية السياسية بعد الإصلاح ، ولم يكر أحد من الأوربيين أثر واحدة من هذه الحركات في الأخرى فليس في وسع المتكرين المتعصبين منهم أن يقطعوا الصلة بين الحركة الأولى وما تلاها ، مع هذا التلازم في لرمون والأسباب

الدولة والنظام

من لمفارقت في ظاهر الامر أن يقال إن الحضارة الإسلامية كان لها أثر في فصل لدولة عن الكنيسة ، وفيما تلاشت من حركت لنحرير أو دعوات التغيير في معنى الدولة والملك وعلاقة الرعايا والملوك

وإما يبدو هذا القول كأنه من قبيل المفارقات ، لأن المعروف الشائع عن الإسلام أنه وحد الملك والخلافة الدينية وجمع بينهما في كثير من الدول الإسلامية شرقيها وغربيها وقدمها وحديثها ، فكان لقب أمير المؤمنين وخليفة رب العامين من ألقاب الملوك المسلمين إلى زمن غير بعيد ، ولا يزال من هؤلاء الملوك من يسمى به في مملكته إلى الآن

ولكن الواقع كما أسلفنا أن المفارقة هي لظاهر لا في الحقيقة ، لأن حركة التحرير في هذا الاتحاد بين الأوربيين إنما أتت على خطوات متلاحقة منذ القرن الحادي عشر لليلاد إلى عصر الثورة الفرنسية وكانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه هي ثورة الملوك على سلطان الكنيسة ونزع بعضهم كما حصل في إنجلترا إلى الجمع بين الرئاسة الدنيوية والرئاسة الدينية ، وكان استقلال لملك المسلم عن سلطان رجل الدين في اشرق والغرب من أقوى الحواجز التي جدت في حواطر لملوك الأوربيين زمنًا بعد مقاربتهم للدول الإسلامية في الأندلس تارة وفي البلاد التي تسولتها ، الحروب الصليبية تارة أخرى ، فرعوا بدفع من الغيرة والقذوة المائلة أمام أعينهم إلى محاكاة أنددهم وأقرنهم ولنمرد على ذلك لسطوان لشامل الذي فرضته كنيسة عليهم وعلى رعاياهم

فقد كن للأخبار الرومانيين حق الحرمان والغفران بسلطونه تارة على الملوك ولأمرء وتارة على اتحاد السس ، وربما أعلنوا حرمان لملك وأحلوا رعاياه من الصاعة له فتذرع الأتباع الناقمون عليه بهذا الإعلان لنقض طعته وتمزيق ملكه ، وربما ألقى الملوك أنفسهم مضطرين في

كثير من الأحياء إلى ملوك الأندلس في رومة والسعى إليهم لاستغفرهم
وطلب المعونة منهم على أتباعهم ومنافسيهم ونظروا بأعينهم إلى ملوك
مثلهم في أوربة نفسها وفي البلاد الشرقية التي عرفوها فوجدوهم
أحراراً من هذه الرقبة أمنين على عروشهم من ذلك السيف المصمت على
أرقاب ، فلا جرم تحيك في صدورهم بركة من الغيرة وطلب لمحاكاة
ويغتمون الفرصة الأولى لإدراك ما تمنوه وفكروا فيه

ومهم يكن من تعدد الأسباب التي تقدمت ثورة ملوك على الكنيسة
فمن أسبابها التي تذكر ولا ينسى هذه القوة الملكية الماثلة في
الأنلس ومصر وبلاد الشرق الأدنى ولم يتفق عبثاً على ما ترى أن
تبدأ ثورة في ألمانيا وإنجلترا وهي البلاد التي كان لها ملوك وأمراء
أقاموا بالشرق في خلال الحروب الصليبية ، فإن هؤلاء الملوك حاربوا
إشياء الدول بأسمائهم هي البلاد الشرقية بعد أن غلب على الظن أن هذه
الدول ستقام باسم السلطة المأمونية ولحرب حرب صليبية والمرجع فيها
إلى رجال الدين وأخبار الكنيسة فلما استقام لهم التجربة ومثلت
أمامهم القوة وأتيحت لهم أو لحلفائهم لفرضة لموتية حرحوا على
سلطان الكنيسة فكانت هذه هي الخطوة الأولى في سبيل الفصل بين
الدين والدولة ، أو في سبيل عزل الكنيسة عن تدبير الشؤون السياسية
في البلاد الأجنبية عنها

وقد كانت هذه الثورة الملكية ضرورية قبل ثورة الشعب التي تلتها ،
وكانت حرية الشعوب مع ملوكهم على قدر حربه الملوك مع رجال الكنيسة
ولولا أن ثورة الملوك كانت لازمة قبل ثورة الشعوب لاستفاد الأوروبيون
من مقاربية الدول الإسلامية معنى آخر وأسمى من هذا المعنى هي
فهم حقيقة الدولة وحقيقة لرعايه أو العلاقة بين لراعى والرعية ، لأن
أوربة طلت إلى لقرن السابع عشر تعتبر لدولة سيادة للحاكمين على
لمحكومين ، وظن علماءهم ينكرون حق الشعب في الإشراف على
لحكومة ويعتدرون أن هذا الحق طريق إلى الفوضى والفساد كما قرر
جروسيس في كلامه عن حقوق الحرب ولسلام

وقبل جروسسيوس ، امام القديس الدولي عندهم في زمانه - كان
لمعري يقول في أوائل القرن الحادي عشر للميلاد ، أي قبل جروسسيوس
بسته قرون

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعسوا مصالحها وهم أجراؤهم
وقبل المعري بأربعة قرون كان القران يعلم الناس أن أمر الرعية
شورى بينها ، وكان لرسول الله السلام يعلمهم أنه لا طاعة لمخلوق في
معصية الخالق ، وكان الفاروق يعلمهم أنهم ولو أحراراً لا يستعبدونهم
خليفة ولا أمير

على أن الأوروبيين إذا كان قد هدتهم أن يتلقوا عن الدول الإسلامية
هذا الدرس الرفيع في معنى الدولة وعلاقة بين الحاكم والمحكومين
فيها ، فإنهم قد عرفوا من تلك الدول الإسلامية شيئاً جديداً في العلاقات
الدولية ومعاهدات السلم والصلح والمشاركة بين الأعداء والمختفين
بالعقائد والعصم واللغات ، فإن الإسلام قد أباح لأتباعه معاهدة
المشركين والذميين وأهل الكتاب كما أباح لهم معاهدة إخوانهم في
الدين ، وقد كانت نشأة الدول الإسلامية على الأرض الأوروبية منذسبة
حية لتطبيق هذه المعاملات مع لمحاربين والمسالين ومع الحكومات
وأحاد الناس ، وكان الأمير المسلم لا ينقض عهد أمانة لمن آمنهم على
أنفسهم ومولهم ولو كانوا من أعدى أعدائه ، فكان إفرسان
المسيحيون يترددون على العواصم الأندلسية لينازلو أبطال المسلمين
نوى الصيت الذائع في حلبات الفروسية والرياضة البدنية فإ يُعْتَدَى
عليهم عابدين ولا مغلوبين ، وكانت الحكومات المسيحية التي ترتبط
بعهود المسالمة أو المشاركة مع لمسلمين على ثقة من الوفاء بهذه
العهود في أخرج لأوقات وأحفلها بالمخاوف والأخطار وشاهد
الصيبيون في المشرق مثلاً آخر من أمثلة هذه القداسة المرمعة
للمعاهدات الدولية وهذه السمة الجديدة في معاملات الحكومات
ولشعوب ، فتغنى الروائيون وأشعراء الإنجليز بصدق صلاح الدين
وشيمه وأريحيته في معاملاته لخصومه ، وسجلوا له بالثناء والإعجاب

صقه بدي لارمه في كل وعد من وعوده ، فلم ينقض كلمه قط ولم يحدث مرة ببعين .

وأعجب من هذا في باب التفرقه بين حدود الحصومة وحسود المعاملة أن قيام الحرب بين العرب والصليبيين لم يكن ليقطع أسباب التعامل بين المعقاتلين في غير ما تستدعيه ضرورات القتال ، ومن ذلك ما رواه الرحالة بن جبير حيث قال « ومن أعجب ما يحدث به أن الفتنة تشتعل بين الفتيين مسلمين ونصارى وربما يلتقى لجمعون منهم ويقع التصاف بينهم ورفاق المسلمين ولبصارى تختف بهم دون اعتراض عليهم ، شاهدنا ، في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الأولى ، ومن ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمبارلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى وهو المعترض في طريق الحجار ، والمانع لسبيل المسلمين على لبر بينه وبين قدس مسيرة يوم أو أشق قليلا وهو سرارة أرض فلسطين ، وله منظر عظيم الاتساع متصص العمارة يذكر أنه ينتهي إلى أربعمئة قرية ، فدارله هذا لسطر وضيق عليه وصال حصاره ، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد لإهريج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك ، وتجبر النصارى أيضا لا يسمع أحد منهم ولا يعترض ، ولبصارى على المسلمين صريسة يؤذونها في بلادهم وهي من الأمانة على عنة وتحار النصارى أيضا يؤذون في بلاد المسلمين على سلعهم ، و لاتفاق بينهم على الاعتدال في جميع الأحوال وأهل الحرب مشفعون بحربهم ، والناس في عافية والدين لم يلب هذه مسيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تعترض الرعايا ولا التحار فالأمن لا يفارقهم في جميع لأحوال سلبا ، أو حربا وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه »

* * *

وقد كان لفهم الدولة على معناه الصحيح أثره النافع في العلاقات السلمية والحربية بين الحكومات ، فلم يحدث قط في العالم العربى أن

دولة حاربت أخرى للمطالبة بحصة أميره في العرش أو للحلاف على ميراثه ، لأصهار وتركات أسيوت لمكة لأن الحضارة العربية رفعت معنى لدولة من مرتبة الحطام الذي يورث أن يتنقل بالنسب والمصاهرة إلى المرتبة الإنسانية التي أرقت إليها الحضارة الحديثة بعد ذلك ببضعة قرون وهي قيام لدولة على علاقة حرة مع الرعي المسهل والرعاة المطلقاء من أسر العبودية والاسترقاق ، تلا حرم يقال بحق إن الحضارة العربية سبقت وربة رمد طوبلا في محار الحرية الدولية وسلك المنهج الوحيد الذي سوي إلى نظم المعاملات العالمية على لوجهة نقدية التي يعمها دعاة الإصلاح في عهد عصبة الأمم لمتحدة، وما بشبهها من لجامعات .

أثر أوروبا الحديثة في النهضة العربية

سداد الديون

مضى زمن كانت أوربة فيه - ككل رأيت في بعض فصول هذا الكتاب - تتقى احضارة العرسة وهي نافرة متبرمة ، أو حائرة مستسلمة إذ كان شيوخها واصحاب رماها يسعون الزمار ويسخطون عني الدنيا ومن فيها ، لا وحوه العاشقين قد يحول عن لقبة اتى كذب سامعون بها ، وعقول المتعلمين قد انصرفت عن المطالب بمي كذب معكفون عليها ، فأصبحوا ولا هم لهم إلا لاقدار على كل ما هو عرس غريب ، وإعراض عن كل ما هو أوربي أصيل

ثم درت لافلال دورائها لنى دورره وكانت عني مستقرة في مكانها ، فإد بصيحة كهذه الصيحة سمع من جاب الشرق لعرسى كذب منقولة من أقواه أولئك الأوربيين لذين رديوه قبل ألف سنة لأن بناء لشرق أصبحوا ولا هم لهم إلا الإقبال على كل ما هو أوربي عريب ، وإعراض عن كل ما هو شوقي أو عربى ، أصيل

ذلك سداد لديون

وكثيرا ما يكون سداد لدون غير مقصود وعبر مشكور ، ولا سما ديوان الحضرات لانسانية النى متو رثها الأمم بوليك بين لآخذ والإعطاء

وبعلم السرق الحديث من وره كم علمت ، وره من شرو انعام ولا ضمير فى التعليم ، ولولا انه كان تعليم قصور فبن المولع لكل جديد كاتوالع بكر قديم ، دليس عني بعض فى التفسير وعلى اتباع مخلو من الابتداع وقد عشت زمت فى لشرق ومفاس الحرية عندما ان بقبل على كل جديد لانه جديد ، وان نثور على كل قديم لأنه قديم فكان ذلك عهد تعليم ، وكان كذلك عصر قصور

ثم بلغ هذا العصر مداه مروراً في صفوف الشرق من طائفة تملك
حريتها في وجه الحديد كما يملكها في وجه القديم ، فلا ينفذ الإنسان
صفة الحرية لأنه يفضل بعض القديم على بعض الجديد ، ولا يكسب
الإنسان صفة الحرية لأنه يفصل كل جديد على كل قديم . إن يكون
مقياس الحرية هو مقياس التمييز لكل ممد ، والاختيار لكل ما يستحق
أن يختار

نقله من عصر القصور إلى عصر الإرشاد والاستقلال
تعلمت مكرهين متعدين ثم تعلم مختارين متدعيرين
وتم يفصل ما بعد من قبل وما بعده يوم على باب دور باب
أو فريق دون فريق ، من شمل بمدرسه والسبب والسوق وعم الحامدين
والمؤسطين ومنتظرين ، ولا يزال علينا أن نتعلم الكثير في كل باب
ون نعرف لنقدم من كل فريق ولكن على سنة إرشاد لا على سنة
القصور .

وسينغ هذا العصر مداه بعد حين ، وستور الأقاليم نوراتها التي
بتشبه فيها الحدار بالقرار غير بعد أن نسمع لصيحة مرة أخرى
في جانب من حواش لكرة الأرضية وغير بعد أن يملأها الشرق في
هذه المرة على نحو جديد . فقد يتسع بها عالم لروح ، إن لم ينسع
لها عالم لفكر وانعم أو عالم الحكم والسياسة

الاجتماع والسياسة

شاع اسليم لحدث في الشرق كم شاعت فيه القنوة المعيشية كبير من مظاهر الحصار الأوربية ، وكان لشيوخهما معاً فعلٌ سريع في بعض باب الاحياء ومقوماته تقابلت فيه احساس و مساوى ، على حكم لعدة المألوفة في كل غير سريع ، وفلذ يقع لتغير في العرف لاحتساعي نور ان تسو ثره ومصاحباته في الأسره وفي العادات العامة ، وفي العلاقة بين الطبقات

وقد كاس لذلك لتغير السريع اثاره في هذه المناحي لثلاثة ولا سيما الأسرة ، فإن لتعليم وتحرير المرأة وتصور لوارم لمعيشته قد سجدت كلها على بقليل الرعدة في تعدد سرحاب لأن لرحس المتعلم بطل لزوجيه للمشاركة في الفهم والشعور ويصير بنته ونخه في الوقت نفسه ان تتعرضا لمتعب نصير المصارعة بينها وبين لزوجات الأخريات والمرأة المتحررة نشد ابروج لذى يتناصرها الحب والموودة ويعاملها معاملة الشريكة في حياتها البسة وحيدته لنفسيه ، وبكاليف المعيشه ويعمم الانباء عبء لا يقوى عليه الزوج الذي يضطلع بهذه التكاليف في أكثر من اسره واحدة

وأصبح اقتناء الحورى محرم بحكم القاسوس بعد اتفاق لدول على تحريم بوق فبصب لتراتع إلى تعدد لزوجات بالتسرى والاسرقاق ، وكان صبراً من الوجاهة ترصده بعض الأسر الغنية على هذا الاعتراف

وشوهدت في الأسر بمصر ، عدية بالحفلات لبيتيه لمسابات لم تكن شائعة بين الشرقيين قبل الحصار الأوربية وهي ذكريات ابرواح وذكريات ميلاد الانباء ولأعهاث لالاء وعبرها من المسابات العامة التي يحتفل بها الغربيون كرسيسة لشمسية وبعض مو سم القصور ، و سيج في هذه المناسبات ما لم يكن مباحاً قبل ذلك في مجتمعات الأسر كالمقامرة ولشرب ،

وقد كسبت لأسرة الشرفية من ذخيرة وخسرت من ناحية أخرى بهذا
الارتواج العجيب في داب المعيشة فإن الأمم الشرقية اقتسمت من
الغرب كثيراً من عادات الفراع ولزجة «خارج الست» ولم تتركز كلها مما
يرافق حياة الأسرة وواحدت اثريسة التي تنط بالأمهات والآباء داخل
البيوت ، وساء فهم الحرية السياسية في بعض لنبات فسحق إلى الأوهام
أن الحرية تحرراً من حملة القيود ومنها قبول الوفاء للأرواح والآباء
فنداعى بنيران الأسر التي فشت فيها هذه الدعة الغربية وامسحن
لمجتمع الشرقى بمحنة حصيرة تحول اليوم أن ينجو منها ولا يزال في
محدولانه حتى نتاح له الاستقرار على علقى مريح من دواعى الحاضر
ودواعى الماضي ، ويوعى الحرية لفردية ومطالب المجتمع و لأسره
اما العلاقة بين الطبقات فلم تتغير تغيراً كثيراً هي لأمة الشرفية بعد
الاحتكال بالخصارة الأوربية لأن أوربة صنعت قدم لصناعات الكبرى
في بلاد الشرق واحسرت اسواقها لمصنوعاتها ، فوقف الزراع وأصحاب
الأرض في موقعهم القديم ، وركبت الصناعة هم تحنن عصبة من عمال
في صعيد واحد للمصالة بحقوقها كما تقع جماعات العمال في العوصم
الصناعية لكبرى ، وحالت أوربة بين نجدد لصناعات حائر آخر لم
تقصده ولكنه فعل معه في جميع الأقصر الشرقية على تنوع مرافقها
الاقتصادية وذلك أنه رست إلى لشرق أعوانها ومصرفها وشركاتها
لتستعر اغبياء وفقره على اسوا فأنصبت الطبقات الاجتماعية كلها
في حكم الصبغة لعاملة أمام هذه الاستغلال ، وبأجل تقسيم الصناعات من
حراء هذا الاتفاق بينها في مواجئة رؤوس الأموال لأحسية
وفيمر عن نشوء لحركة التعاونية في المدن و بقرى على نطاق صيق
محدود لم تنعبر علاقات الاقتصاء بين الطبقات تغيراً يناسب لخطوات
السياسة لى خطاها شرقيون سقياً إلى استحرير والاعرف بالمركز
القبوي في لمعاملات لدولية ، وهم ما يذكر في باب تجدد لصناعات
أن يستشار التعليم وزحام المدن قد صاعفا قوة لصبغة لوسطى
فارتفع لها صوت مسموع في توجيه لسياسة الوطنية ، ولم تزل الطبقة

العقيرة عالة على امطبة الوسى فى لمصالحه حقوقه والإفضاء
شكيتها ، وبكها تستقل بالرأى شيداً فشيئاً خلال هذه السنوات ، ولا
سما سنوات لحرب العلمية وما تخللها وأعقبها من دعوات الإصاف
ولتقريب بين لصقات

وإذا استصر القول إلى الاقتصار الاجتماعى أو لاقصاى الذى
له علاقة بروح المجتمع وخلقه فمن المسندثات التى لا تهمل فى
هذا الصدد أن اشرق الإسلامى ترخص فى إنشاء لمصرف أمالية
وقس العمل بالفئة الصيفة التى لا تعتبرها من الربا الفاحش المحرم
بمصوص القرآن

على أننا ننظر إلى جهود الأمم اشترقيه من حمص الاعتبار ، فيحوز
لأن نقول إن لوعى السيسى فيها قد سبق بوعى لاجتماعى شوصاً أو
شوطين وإن لمصلحة القومية تدفع بها بموزنة بين مساعدها فى
ميدان السياسة وميدان الاجتماع ، بعد أن استنفدت قوتها الكبرى على
إثر يقصها ، الأولى فى تحقيق عايتها الوطنية وأمالها فى الحكومة النيابية
وقد أجمالها الكلام فى عبر هذا الفصل على الوطنية والحكومة
اسيائية ، ونصيف إبه فى باب التصيد اسيسى أن اضطراب الغرب
باشرق كسب له آثار أخرى فى أعمال لحكومات غير هذه الآثار فى
أعمال لشعوب فعمدت كل حكومة تمسك بمعض التصرف فى شئونهم
إلى تبدين نظامهم العسكرية وإنشاء لمحاكم لحدثه التى سميت
بالمحاكم الأهلية أو المحاكم المرسية ولم يكن لها عناصر - غير إلاء
الامتيازات الأحبية من قنياس بفصاء لأرسى ومبادئ بقوفين
الأورية على الإجمال

ومن الآثار لنى لا نعمل فى صدد الكلام على لسفعر بين احصارين
لأورمية ولعربية - ساسية ودية قولت فى اشرق اعربى بخوة جديدة فى
عديم ساسية معرف دجامعه لعربية ، وهى قوة لا تقصر على أعمال لساسية
وولادة الأمور لانبها على وقع لأممر مسنده من بقعة اشعوب وإحياء بترث
بعربى منذ مائتى سنة هى كل مكان يحتاج هبه إلى معرفة اللغة العربية

ومن المألوف على ألسنة المدعيين إذا رأوا موافقة بين حصة أوربة وحركة شرقية أن ننسوا هذه الحركة إلى تدبير الأوربيين وبحسبها من المصنوعات المصنوعة لني لا يرجع إلى سبب غير ذلك التدبير ، وكذلك فعلوا في حكمهم على الجامعة العربية حين لاح لهم أن استجابة لأوربية بمشيتها ولا تعم على إحباطها وفي هذا ولا شك انحراف عن لغتهم الصحيح ، فإن السياسة الأوربية كانت ما كان شأنها وقدرها على التدبير والتنمية لا مبالى شحاً هي لحدل ولا تخلق شئ من لا شيء ، ولا يصطع حركة من الحركات لني يساهم فيها الملايين يقوم كلها على محض اصطلاح

ومن شأن الدعاة السياسيين أن يستعصوا من الدعوات في بابها وفي مكانها ولكنهم لا يسبقون ولا يحققونها من لا يهتمونها قبل وقوعها ولا يتسعون النظر إليها فلم يكن أكثر من المؤتمرات الدولية لني تعقدت في القرن الثامن عشر ولدى بلده ولكنها لم تعرض مرة من لمرات للمادة الحقيقية الشعوب أو مبادئ تقرير المصير ، ولم يحسموا عن باب عجزاً عن الخداع أو كراهة منهم بمصورت ولكنهم أحجموا عنه لأن هذه الدعوات لم تكن لها حقيقة ماثلة في حركات الشعوب فلم يجدت هذه الحقيقة ماثلة في حركات الشعوب هذا وحده هذه الحقيقة لاثلة كثرت المباداة بها في خطب لسياسة وبرامج الثورت ومباحث المؤتمرات ، وكان من نتائج هذا أن عدد الشعوب المستقلة برز عاماً بعد عام

واليفظة عربية حقيقة ماثلة وحركة طبيعية لا شك فيها قدمت في شتاتها لحدثت على أروع من السياسة الأوربية ولم يعم باحباطها وتديبرها وعادت إلى المحسوس والوحد من الحريين العالميين لأنها لا بد أن تعود بعد قوتها الأولى هذا أو أن لفرن التاسع عشر ستر برهيم باش وهو يواصل الدول العثمانية إلى أن تنتهي فتوحاته ، فقال حينئذ لا يوجد من ينكلم العربية يريد بذلك أن يثني دولة عربية محض ولا يريد أن يتحوزها إلى بلاد أخرى

وحوالى هذا الوقت كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد يعلن الثورة على الحكومة العثمانية ويجمع لقبائل في جزيرة العرب لتوحيد كلمتها والاتجاه بها إلى وجهة الاستقلال عن السيطرة الخارجية

والم تكن حزيمة العرب يومئذ بعرف بشي، من السلطان الاجنبي عبر
 السيادة الاسمية والرفاهة لبعيدة التي لا تعرض لشنوبها الداخلية .
 فكان أمراء نجد والكويت و لحجار و، ومن يتحدون وقلما بعضون في
 علاقتهم بالدولة العثمانية ، وكانو على استقلالهم الذي يعودوه منذ القدم
 في حوض الصحراء وباديتها ولا سيما السواحي التي تحجم عنها
 جلود السولة ولا تنفد إليها بغير إذن من آيبتها ، ولولا قرب العراق من
 مركز الحدود التي تحميها لولة بجيوشها لكن شأنها في حصته
 كنش الحزيمة العربية

وكانت أفرقية الشمالية تعتمد على نفسها في مدفعة لفرسبين عن
 استقلالها وحوارة أمارتها وشعوبها أم في سورته ولبنان عقد رحلت
 حميرة لشعب حركات لوحدة مع الأمم لعربية لأخرى وكنت على
 اتصال ثم وادي النهر وانجريره ، وكانت علاقة أمارتها سرأ وحجرا
 بمحمد علي بكير مزار القلق الدائم بحكام لعثمانيين

وفي كل هذا كانت لسياسة لأوربية بقد من حركات لعرب موقف
 لمقاومة والسيطرة لأبها عملت على بقاء الأمم لعربية في حوزة الدولة
 العثمانية ، محرومة الجهد المستصاع من حقوق السيادة والاستقلال
 ولم تفلح هذه لمقاومة لا ريثف ، سبحت تلك الأمم بشايتها وبحوزت
 مرة أخرى لثوب إلى عديتها

هفامت في مصر حركة لمصلية بمصر بمصريين وقامت في
 السودان حركة لثورة على «الرب» كما كانوا يسمون الأتراك جمعين
 وقامت في بلاد لعرب ، عود و حدد إلى الاستقلال ، كتب كانت تصحى
 من اوبة إلى أخرى بحجة المنافسة بين رعب ، لعشائر وأمراء لأقاليم ،
 وسخر السوربون و للمبشرين و يعرفون في حرب تركيا لعناة لانه
 الحزب الذي كان يصيهم بالحكومة «اللامركزية» في حكومة العرب هي
 يلاهم كما يشاءون ومن يشاءون

وهي هذا الذي نصب من اديار القصة العرب كانت سياسة الاوربية
 بحل لعرب و بمبعهم ان يلعوا من الاستقلال عايه ما يقدرون عيه

تم تثبيت حرب الأمم قبل ثلاثين سنة فتحركت الجامعة العربية من حديد تارة على هدى وثارة على ضلال ، فتساقطت بول أوربة إلى كسب الانصار من أمم العرب التي استقلت أو لتى صمحت إلى الاستقلال وانتهت احرب والأمم العربية جمعاء متفقة على المطالبة بالحرية و لعنادة باسم لعروبة في جامعة تتوفر لأعضائها حقوق ، لاستقلال وعلى ما كان من موقف أوربة في المقاومة والتثبيط كانت لها فئات هنا وفئات هناك تبدر منها حيناً بعد حين ، في سبيل التشجيع والإعراء فكان الإنجليز مثلاً يشجعون المناداة بمصر للمصريين لأنهم فصل مصر عن الدولة العثمانية ، ولكنهم يثبطونها من جهة أخرى لأنها ثورة صريحة على الاحتلال البريطاني ، وما عسى أن يتطور إليه من سطوة الحماية البريطانية في صورها الكثيرة

وكان الفرنسيون يشئون المدارس في البلاد السورية كما ينشئون فيها المطابع ولما جمع لنشر كتب العرب وثقافة لعرب وإحياء التراث العربى القديم ، سعى إلى الفصل بين العرب والدولة العثمانية لا سعياً إلى استقلالهم عن جميع الطامعين ، وكانوا يجتنون ذلك في أقريقب لشماية حيث يتفرون بالحكم ولا يستريحون إلى عواقب هذه لبقصة أو هذه لجامعة لثقافية الدينية

وكان الألمان يهاشون هذا مايقرب إلى " حاميته الإسلاميه " لأنها تشمل امتقرب من الترك والعرب على السواء ، ولكنهم يطمحون من وراء هذه لجامعة إلى بلاد العرب في طريقهم إلى الهند والأقطار الآسيوية ويسعون السطرن عبد الحميد إلى حد خطوط امواصلات في أنحاء سورية والجزيرة تحقيقاً لأحلامهم . لتى تتلخص في صيحتهم من «برلين إلى بغداد» ثم إلى الهند من هذه لطريق

فالسباسة الأوربية قد وجدت حركة قدومة فاسنفادت منها ثارة بالمقاومة وثارة بالتشجيع أما أنها تحقها خلقاً فذلك مخالف للواقع ، مخالف لفكرى التاريخ وهى تدخل اليوم في طور جديد بفضل كتابها القديم لا بفضل السباسة المصطنعة أو التدبير الخارجى من جانب الإنجليز أو جانب الأمريكين .

وقد تكون لبريطانيا النعصى مصالحة فى مصادقتها ورغبة فى معامتها ، ولكنها تحد هذه المصالحة فى التفاهم بينها وبين الإغريق أو الإصاليين ، فلا يقول قائل إنها خلقت القومية الإغريقية أو خلقت القومية الإيطالية ، أو إنها قادرة على تجاهل القوميتين وحيد ما ترميان إليه إذ تحولت السياسة من خطة إلى خطة هي المستقبل القريب أو لمستقبل بعيد . فالجامعة العربية حركة طبيعية من قديم الزمن وهي طبيعية فى هذا الزمن على التخصص لأن العصر الحاضر ينادى بحترم حقوق الأوطان وينادى بالتعاون فى الحور ، وينادى بالتعريف لشمل فى المسائل العالمية ، لكبرى وأبء العربية محبون لاستقلال لأوطانهم ويجاورون فحدودهم إلى التعاون فيما بينهم على المرفق المشتركة وهي أكثر من أن ينحصر فى مرافق الماصى أو مرافق الحاضر أو مرافق المستقبل على أفراد ، وكلهم يؤمنون ويعتقدون بأن يعيدوا فى المسائل العالمية الكبرى التى يصعب مباشرة أو تصبهم نتائجها التى نعم البشر أجمعين .

والجامعة العربية مستقبل سياسى رهين بأحوال العلم وبفلباته واسطام العلاقات بين شعوبه وحكوماته ، ولكن ليقطة العربية حقيقة لا ترتبها بالسياسة وحدها لأنها مستمدة من صبيعة الأشياء لا من مرج الدولة ولرؤساء

الحكومة البرلمانية

حرم القرآن الكريم الحكم المطلق وأنكر سلطان «الجبارين» في الأرض ومرض الشورى على النبي وحلفائه فقال «وشاورهم في الأمر» ، «وأمرهم شورى بينهم» وقرر المساواة في العدل بين جميع الناس وإن قضى بينهم بتفاوت الدرجات

ويقراء المسلم القرآن فيحس إحساساً «شورياً» ويتعمق فريضة الشورى بالإيحاء والتلقين فضلاً عما فيه من الأمر الصريح بالمشاورة وسؤال أهل الذكر واجتناب الطغيان في السلطان والاستناد بالحكومة ، لأنه يرى أن أول عمل من أعمال الطبقة الإنسانية كان حقيقة أن يسمى بلغة العصر لحضر عملاً «دستورياً» من جانب الخالي جل جلاله ، ويقوم على إقناع ولا يقوم على الإكراه والإحصاع

«وإذ هار ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أبتوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أسّمهم بأسمائهم فلما أبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم عيب السماوات والأرض فأعلم ما تقولون وما كنتم تكتمون .. »

فلم يكن الاستحلاف في الأرض بالإحصاع بل بالإقناع ، ولم يصيحب الحليّة الموعود أهلاً لهذه الأمانة إلا بعلم يعلمه ويجهله سائر اخلائق ممن فضله عليهم الخالق بهذا الاستحلاف .

ووحى هذه المعاني المستفادة بالإيحاء والاستكانة يلقن المؤمن بالقرآن «حسن» الشورى ولنفرة من الاستناد لأن الإيحاء والاستكناه أقرب إلى التلقين من الأمر الصريح .

فالأمر «بالحكم الدستوري» قديم في الحياة العربية ، أصيل في الدولة الإسلامية ، ولكنه المبدأ الذي سبق الأطوار الشعبية بعدة قرون فلم تنهيا له الجماعات الإنسانية إلا بعد الدعوة المحمدية بألف سنة أو تزيد لأن الأمر بالشورى ينفذ نفاده حين يوجد معه صاحب الحق الذي يطالب به من يسهه ويرد إليه من يحيد عنه وليس صاحب الحق من غير «الشعب» لذي يتعلم ذلك الحق ثم يشعر بالحاجة إليه ثم يسلك الوسيلة التي تخرجه من حيز «المبدأ» أو واجب إلى حيز «العمل» النافذ . ولم يكن تمام هذه الأطوار ميسوراً قبل أحوال تعقبها أجيال وأهوال تغلوها أهوال ويومئذ تصبح لشورى «نظاماً» يثمر به لحاكمون والمحكومون ، ويوشك أن يجرى في الأمم مجرى الحوادث الطبيعية التي تتقرر بالضرورة الغالبة قبل أن تتقرر بالاختيار والاستحسان

فما بلغت هذه الأصوار تمامها كانت الحكومة استورية أو الحكومة الدستورية نظاماً أوروبياً يتلقاه المشرقون عن الأوربيين ، ولا يتلقونه مذهباً غريباً يحتاج إلى إقناع ولا عقيدة جديدة تحتاج إلى تبشير

* * *

نعم إن القدرة الأريستوقراطية عرفت النظام البرلماني على صورة من صوره الأولى قبل الميلاد بعدة قرون ، فنشأ مجلس الشيوخ في رومة ونشأت المجالس التي تمثله في أثينا وإسبرطة وبعض الأقاليم الإغريقية ، ثم نشأت بعدها مجالس أخرى أدنى إلى نظام المجالس التمثيلية الحديثة وأقرب إلى الحكم الديمقراطي الذي تشترك فيه جميع الصفات

ولكنه كان من «نظاماً» من النظم الخاصة ولم يكن الأمر فيه أمر المبدأ العقلي والحقوق الإنسانية ، فلم يعمل اللاتين والإغريق بهذه النظم تقريراً لحق الإنسان في الحرية أو بعميقاً «لمبدأ عقلي» محوز تطبيقه أو يجب تطبيقه في جميع المدن وبين جميع الشعوب ولكنهم عملوا به لأنه حيلة صالحة لسياسة أمة يعينها على أقدار من هيها من رؤساء العشائر ومن يتناسون على الحكم والسيادة ، ولما تطور الحكم الشعبي في أثينا على

عهد كليستين لديمقراطية حتى أصبح حق البيعة حقاً عاماً لمن بلغ
الثلاثين في الثوائر الانتخابية المختلفة لم يكن هذا «التطور» عقدة
إنسانية قديمة للتعظيم ولا تسليماً بالبدأ الذي يقوم على الحرية وتقضى به
الأصول الأخلاقية ، ولكنه كان تدبيراً موضعياً يناهض به تدبير الصفاة
الذين كانوا ينافسون ذلك الرعم الدسقر طلى بقوة القبلة أو قوة العصبية ،
ولعله قد خطر له الاستنجاد بالفرس لانتزع الحكومة من طاعة القبائل والعصبات
فالحضارة العربية قد سبقت الغرب بمبدأ الحكومة الشورية هي محال
العقدة والأحلاق

والغرب قد سبق الحضارة العربية بحكومة الشورى في محال النظم
الواقعية التى تتمحض عنها حوادث التاريخ

ولا ننس أن الحكم لدستورى كان يمتد إلى بلاد الشرقين الأدنى
والأوسط بهذه السهولة لو لم يكن له أساس قائم من عقائد اناس
وعتراف الحكامين وامحكومين بمبادئ وأصوله ، فإن الأمم الغربية قد
ضيعت جهودهم الأولى في إكراه الحكم المطلقين على النزول لها عن
دعوى الولاية «بالحق لإلهي» ودعوى السيادة عليها بتفويض السماء
فكن عليها أن تجتاز نصف الطريق بل نصفه ،الأوعر الأطول - في
تقرير المبدأ الذى سلمه العرب حكما ومحكومين قبل نشأة الحياة
النياية الحديثة بألف سنة ، وهو مبدأ اشورى والمبالغة الحرة والرجوع
بالحكومة إلى مصحة الرعية واتفاق الكلمة بين نوى الراى فيها

والحاكم المطلق - فى الشرق أو الغرب - يأتى أن يشارك فى أمره
ولا بدعن لمحكم الشورى باختباره ، ولكن لفرق العظيم بين حاكم
يستطيع أن ينكر أساس الحكومة السياسية وحاكم لا يستطيع إنكاره ولا
يجسر على الجهر بذلك الإنكار محافة اتهامه بالخروج على أحكام الدين
وعصيان رب العالمين بل الفرق عظيم بين حاكم ينكر الحكم النياى
وهو يعنصم بالحق الإلهي وتفويض السماء وحاكم يخاف من إنكاره لأنه
يخالف الحق لإلهي كما يخالف تفويض السماء بذلك لإنكار

لذلك كانت معارضة السلاطين والأمراء الشرقيين في الحكومة الدستورية معارضة تقوم على الأعذار الموقوفة ولم تكن معارضة قائمة على الأسس والأصول ، وكان معظم هذه الأعذار مما يرجع إلى السياسة الأوربية والعلاقات الأجنبية التي كانت تعوق النظام النيابي في بلاد المشرق وتعهده العذر للسلاطين والأمراء في المعارضة أو التسويف

فكان سلطان الدولة العثمانية يؤمن بواجب الشرى ويسمى الرتبة الكبرى عنده رتبة «المشير» لأنه يحشى أن يصارح رعيته بأنه يسائر بالرأى ويتولى شئونها على سنة الاستبداد ، ولكنه كان يعانق في تعميم الحكم النيابي بين رعاياه لأن فريقاً من هؤلاء الرعايا يخالفونه في الجنس ولدين وألعه ويمالتون الدول الأوربية عليه ولا يخلصون في خدمة الدولة إذا تسنموا مناصبها العليا واطبعوا على موضع الأسرار من سياستها لخارجيه أو سياستها ، لدخلة

وكانت لمناظرة بين روسيا وبريطانيا العظمى في البلاد الإيرانية تحول دون استقرار الأمر وانتظام السعى في توطيد الحكومة النيابية، لأنهما تبلفان من بطانة الحكم المطلق مالا تبغفانه من حكومة نيابية تخضع لرقابة لشعب وتكشف له عن تصرفاتها في مسائل الشركات والامتيازات

وقد نزل المحتلون الإنجليز بمصر في أواخر القرن التاسع عشر وهما حكومة نيابة تطورت بها التحارب المتوالية من عهد محمد علي الكبير ، فعطوها لأنهم لا يستطيعون أن يجمعوا بين إشرافهم على الإدارة المصرية وإشراف المجلس لنيابى عليها ، ثم اقترن طلب الدستور بطلب الاستقلال فأصبحت الحكومة النيابية مرادفة للحكومة الوطنية في برامج الأحزاب المصرية ، وأصبح الحكم الأجنبي هو الحائل ، لاكبر دون قيام الحكم النيابى ، الذى ينشده أحرار المصريين وعلى هذا تعتبر الحياة النيابية كما رسمتها الأوضاع الحديثة ثمرة

أوربية انتقلت إلى الشرق من حضارة الغرب في العصر الحديث ولكن الشرقيين عرفوها فاقتبسوها ولم يعرفهم بها الغربيون فيعرضوها عليهم فرض المعنمين ، روسهم على التلميد الذي يكره ما يفرضونه عليه لأن مطامع لغرب كثيراً ما عرقت خطوات الشرق كما رأينا في حركانه الدستورية ، والفضل في تهيق الشرق لقبول هذه الثمرة الأوربية راجع إلى عقيدة الحرية والشورى التي بثتها حضارة العرب بعد ظهور لإسلام ، ولم تكن غريبة عن الحناة العربية الأولى قبل ظهور الإسلام

الوطنية

حب لوطن غريزة معروفة في الإنسان من أقدم عصوره الاجتماعية عُرِفَتْ في البدو الرحل كما عُرِفَتْ في سكن المدن وأصحاب الأرض لور عيه وبقيت لنا من دلائلها في اللغة العربية هذه القصائد التي يتقنى بها إلى اليوم من يدكرون الديار ويحسون إلى المراعع والأصلال ، ولو طال بهم عهد فراقها وانقطعت عليهم سبيل الرجعة إليها

لكن الوطنية بمعناها الحديث شيء غير هذه الغريزة لأنها مجموعة من الحقوق أو الصلات الروحية والثقافية ، قد انفرد بها الإنسان في عصره الحديث بعد القرن الثامن عشر على وجه التقريب ، واحتلف فهم الناس إياها عن ذلك الشعور العريزي الذي ينقو فيه الإنسان وكثير من الأحياء لأنيسة ، بل ينقو فيه الإسدن وبعض الصوري ، إلى أبهى عرائنها وأوجارها ، حاميا ولا يسبدل بها غير ما صصعت المقام فيها

ولم يكن من الميسور أن تنشأ الوطنية بمعناها الحديث قبل القرن الثامن عشر أو قبل الاصوار الاجتماعية التي تقدمتها وكانت ممهدة لظهورها وانتقلها من حيز الفرائر المشتركة إلى حيز الصلات الروحية وشفافية التي يفردها الإنسان في مجتمعاته لأن هذه الأصور كانت ساقص الوطنية في بعض الأحوال وكانت تحييعها في أحوال أخرى ، وكانت على الجملة حصوت سابقة لاند منها قبل استطرق إلى الخطوات التي تليها

فكان لاند من تطور عهد الإقط ع نفس شعور الإنسان بوصلته في مطلقه لو سع ومصالحه لمتشايكه لأن متماء الناس إلى «إقصاعات» متعددة في قصر واحد يربطهم بصور شيء من الولاء للسادة المتعديدين الذين يسيطرون عليها ، ويعودهم صرورًا من استخلفات ولخاصصات تغلب فيها الزمرة والطائفة على الأمة أو الدولة نفسها في بعض الأمور

وكان لابد من تطور الجامعات الدينية قبل الشعور بمعنى هذه الوصية ، لأن الإنسان يرضى في الجامعات الدينية أن يحكمه من ليس من أبناء وطنه لانفاق لحاكم واستحکوم في العقيدة والمراسم الروحية ، ويكره أن يحكمه من لا يدين بدينه ولو كان من بلده وجواره ، ولا ير ل كذلك حتى يتعذر حكم الأوطان المختلفة بحكومة واحدة قائمة في مركزها البعيدة عنها ، لاختلاف امراقق واختلاف النظر إلى الحقوق والسياسات وشؤون الطبقات الاجتماعية التي تتنافس في الأوطان المتعددة ، وإن جمعتها علاقة وثيقة واحدة

ولما تطور عصر الإقطاع وعصر الجامعات الدينية معاً أو على النعاقب بين حل وحل ، فم من بعدهما سلطان الصوت لمطلقين لدين ساعدتهم قوتهم المطلقة على قهر أمراء الاقطاعات والاستئثار سلطان العرش وما يرتبط به من لدعوى والحقوق ، وكانت قوتهم كهيئة لهم بسط كلمتهم على رعاياهم وحصر فرائض الولاء في أشخاصهم أو في أسرهم ، وكانت « المملكة » سابقة للأمة أو سابقة بطبقة لحل للحقوق التي تنشأ من الاعتراف بالأمة بالسيادة على بلادها ، ولا يفهم اوصى على أنه بلاد « الأمة » ومماط سيادتها قبل أن تصبح الأمة مصدرًا للسلطان كله ويصبح الملك خادماً للوصى بسوب عن الأمة في تدبير مصالحها ، وقبل أن تتبع الطبقة الوسطى التي تصطبغ بالحكم مع تقييد الملوك ورواى لسيادة لإقطاعيين ، وهذه هي العقيدة التي بمخضت عنها أطوار كثير من عصر النهضة إلى عصر الثورة الفرنسية ، ولم يكن قد توصل لها الأساس الذي تعلق عليه قبل تمام تلك الأطوار

ولقد كانت الأمة العربية أولى الأمم أن تنشأ فيها الوطنية بهذا المعنى الحديث قبل نشأتها في أعقاب ثورة لفرنسية ، لأنها كانت تدس بأر الأرض لله وأن الملك خادم اشعب بحكمه باختياره قبل أن تتقرر هذه الأرء في أمم لحصارة العربية ولكن التاريخ لا سبق وأواه ، ولاند للجامعة الدينية من سور تحرى فيه وتبع مداه وقد كانت هي أوجهها وكانت معالم الوصية في عيها تنتظر أسسها ومواقبتها فلما حار

الميقات المقدور كان من عاصب أطوار لبارح أن يأخذها الشرقيون
عن الغربيين وأن يأخذوها تارة كارهين وتارة مختارين

نعم أخذوها تارة كارهين وتارة مختارين لأنهم أخذوها بالتعصب
والمحاكاة وأخذوها بكفح الثورة على الاستعمار فكانت المصاداة
بحقوق الإنسان هي فاتحة الاعتراف بحقوق الأوطان ، وكانت غارة
الأوربيين على أوطان الشرقيين محرصًا لأناء تلك الأوطان على المطالبة
بتلك الحقوق ، وأشعر فيهم نار الغيرة الوطنية أن الاستعمار يمسهم في
كرامتهم وعقائدهم ومصالحهم ولا يرضيهم بحالة واحدة من الحالات
التي تسوع المرء باختياره أن يخضع لخضوع لمن يخالفه هي الموطن
واللغة ولدين ويدرعه الرق وينكر عليه الحقوق التي ينادى بها في بلاده
ويسمونها بحقوق الإنسان .

نعم إن المغلوبين كانوا يثورون على العالين في جميع لعصور قبل
المصاداة بحقوق الإنسان ، ولكنهم كانوا سثورون للأتفة من الغيبة والألم
من الغصب والمشاركة في الأرزاق وهي ثورة لا ترجع إلى الإيمان
بالحقوق الوطنية ولا إلى إيكار حق انغاليين في تسخير المغلوبين ، بل
ترجع إلى كراهة الصيم ومقاولة العدوان بالعدوان ، ويختلف الصراع
على الغلبة جد الاختلاف من هذا الصراع بين غاصب الحق والمطالب
به وهما متفعلان معاً على حق صاحب الوصل في وطنه فإن النائر
القديم إما كن يثور لأن حاة السيد ، لمطاع خير من حالة العبد المطيع
ولأن المرء لا ينزل عن ررقه وكرامته وهو قادر على أن يحتفظ بهم
لنفسه ، أما النائر الحديث فهو في موقف «المقضى» لذي يطالب
بترثه وماله ، ويود ، لأقوياء إلى شريعة عبر شريعة العلبة العرفوضة في
ضمانر الناس

وظلت لعطفة الوطنية ممزوجة بالعطفة الدينية هي شئون السياسة
العمه ربحًا من الزمن بعد الاعتراف بسيادة الأمة وهيام «هكرة الوطن»
على هذه لسيادة ، وكان شأن أوروبا في ذلك كشأن الأمم الشرهية عبر

اختلاف كبير فثارت إيطاليا وليون في طلب الاستقلال وكلتاهما أمة ذات تاريخ عريق في الثقافة ولفن وأصول الحضارة الأوربية ، ولكن حماسة أوربية لنصرة القضية الإيطالية لم تبلغ قط الحماسة الشعبية لنصرة القضية اليونانية ، لأن اليونان كانت تنحدر على الترك إذ كان الإيطاليون يثورون على النمسا أو على الكنيسة البابوية وفي الوقت الذي كانت فيه أمم كأم البلقان تظفر من العطف الأوربي بأوقى نصيب في قضايا لمطالبة بالاستقلال كانت أوربية تنظر بعين الموافقة أو قلة الاكتراث إلى تقسيم الوطن البلقاني بين روسيا والنمسا وألمانيا ، وعلى بعضها حكومات تغلغل فيها جرائم الفساد والاستبداد وأنكرت حقوق الإنسان ومبادئ الاعتراف بالأوطان

وظهرت نزعة الاستقلال عن دعوى الخلافة لدينية بين الشرقيين المسلمين في أوائل القرن الثامن عشر مقترنة بظهور هذه النزعة في القارة الأوربية ، فكان السلطان العثماني الذي يلقب بلقب الخلافة يولي على مصر ولبًا من قبله ويحتار المصريون المسممون واليًا غيره كما حدث على عهد محمد علي الكبير وتدى طلاب الاستقلال «بأن مصر للمصريين» في أواسط القرن التاسع عشر وجعلوا هذا المبدأ شعارًا لهم في حركة لتحرير مع قيام السيادة العثمانية التي زالت بعد ذلك بخمسين سنة ، ثم ظلت هذه السيادة تنزهد في بيئات الأحزاب السياسية إما بفعل الشعور الديني أو بدافع من الرغبة في مقاومة الاحتلال البريطاني بحجة شرعية لا يكرها ، فلم يكن هذا الامتراج بين عواطف الوطن وعواطف الدين عريقًا في عالم الواقع أو عالم التفكير ، لأن العواطف الجديدة في تطور الأمم لا تولد دفعة واحدة خالصة من آثار سربها وملابسها ، وكان عالم كله - بين شرقيه وغربيه أن يقصى رمزًا ما قيل أن يفهم أبناء الوطن أن حرمانهم بعمدة الحرية والاستقلال هو اعتداء عليهم وعلى كرامتهم ولو جاءهم هذا الاعتداء ممن يماثلهم في النحلة أو البعة أو العقيدة الدينية

وربما كان الأصح - أو الأوضح في تفسير الحقائق - أن يقال إن معنى الوصية الحدث ولبد الحضارة العصرية لا وليد الدهس الأوربي أو الطوائع الغربية - لأن قارة أوربة وجدت منذ اقدم وهم توحد فيها الوطنة بمعناها الحدث - فلما انتهت أطوار الاجتماع إلى حضارة العصر الحاضر كانت أوربة هي مسرح التاريخ الذي تمثلت فيه هذه لأطوار ، وكان قصص الأمم الشرقية في مهم هذا المعنى الحديث أنها نقلته شيء من الاختصار والتفسير ، ولم تستطع به تسلسل الوقائع التي مرت تباعاً بالأوربيين قبل أن تفرصه عليهم الضرورت

الحركات الدينية

تعلم الشرفيون من أوربة ليقاوموها بسلاحهم

ويقال هذا عن الشرق لأقصى كما يقال عن الشرق الأدنى ، مع
حتلاف العقائد ولبينات والأحوال الاجتماعية فمن آيانيين لم
يتحركوا لمحاكاة أوربة في حضرتها وعلومها وصناعاتها إلا بعد أن
اصطدموا بها وعجزوا عن مقاومتها .

وكان الفضل الأكبر لأوربة على الشرق كله هو لفصل الذي جاء على
الرعم منها ، وهو تنبيه أذهان لشرقيين إلى حقائق الحياة وتفتيح
أنظارهم على الأسباب الصحيحة التي تقترب بها نهضت الشعوب
وكان اشرفيون قبل ذلك يعلمون أنهم متأخرون مخلوقون ، ولكنهم
يفهمون لعل التي أخرتهم وقصت عليهم بل تخلف هي سياق الأمم كما
يعلم الجاهل علة مرضه وعجزه ، فيرجع إلى الشعوذة ولا يرجع إلى
الطب الصحيح ويسأل الدجالين و لمخترقين ولا يسأل الأطباء والعارفين
وقد جعلو دينهم كما جعلوا دينهم لأنهم حبطوا بين عاداتهم
وعقائدهم وبين خرافات الجمود وحقائق ابعادات ، فإذا قبل لهم دينهم
تأخروا لمخالفة دينهم ونسبون وصاياهم وأدبهم عدوا إلى الخرافة الفاشية
ولم يعودوا إلى الدين الممهور

فلما قهرتهم أوربة مرة بعد مرة في عدوهم ومقاومتهم لعدوانها
فهموا مصطربين أسدب هذه الغلبة ورجعوا بعد حمن إلى علومها
وصناعاتها ونظم السياسة واحكم فيها فرجعوا إلى الأسباب الطبيعية
وفهموا علل لوقائع أممهم على وجهها المعقول فكان ذلك أول تريب
للذهن على حسن التعبد وفهم صائغ الأشياء ، وكادت لراء أن تتفق
على منهج واحد للإصلاح وهو قتناس العلم لحديث ومحاكاة العصر
في المعيشة و لتفكير

وأقبل المسيحيون من أبناء الشرق على المدارس العصرية يتعلمون ما تلقوه عليهم من دروس التعيم الحديث غير منحرفين من موضوعاتها ولا من مبادئ التعليم فيها ، وأحجم المسلمون عن المدرس ، التي فتحت في بلادهم لأنها كانت في أيدي المبشرين وأعوان التبشير ، ولكنهم لم يحجموا عن إرسال أبنائهم إلى أوربة نفسها حيث تتفصل المدارس عن الهيئات الأدبية ، فجمعت حكومة مصر في عهد محمد علي لكثير من مائة من نخبة الطلبة لإرسالهم إلى العواصم الأوربية وتعليمهم الطب والهندسة والآداب والفنون العسكرية على أساتذتها ، ولتزويدهم في مصر بما يستطيع تدريسه بها من تلك العلوم على أساتذة من الأوربيين

ولم ينقض جيل أو جيلان بعد احتكاك أوربة بالشرق حتى اتفقت كلمة المسلمين على نظرة جديدة إلى الدين وأجمعوا في أنحاء الأرض على أن البدع والخلافات التي شققت بها أسلافها وشققت بها في زمانهم ليست من الدين الإسلامي في شيء ، وبكنهم سلكوا في علاج الداء مسلكين مفترقين على حسب نصيبهم من العلوم العصرية ، فجنحت الأمم التي أخذت بنصيبها منها إلى التوفيق بين الدين والعلم لحديث ، وجنحت الأمم الأخرى إلى نبذ جميع المستحدثات والرجوع بالدين إلى بساطته الأولى كما فهموها ، ونشأت هنا وهناك حركات دينية شتى بعضها على هدى وبعضها على ضلال ، ولكنها كلها كانت من قبيل الحركات الطبيعية التي تتصل بطبائع الأمم وبواعت البيئة في حاضرها وماضيها ، ولم تكن محض اختراع منقطع عن دنيا محصور في التزمت الأخروية التي يفرغ لها من خرخوا بمسكهم وعبادتهم من معتوك الحياة

ولهذا أخذت هذه الحركات من طبائع الأمم التي ظهرت فيها سواء منها ما اهتدى أو ضل عن السواء

فظهر في الهند «علام أحمد القادياني» فزعم أنه هو عيسى بن مريم وأنه هو المهدي وهو الإمام المنتظر في مذهب الشيعيين ، ليوفق بين الإسلام والمسيحية وبين الشيعيين والسنيين ، وادعى قيم آدمي أنه تنس روح مريم العذراء ثم تلبس بروح المسيح على النحو الذي يمثل به

البراهمة صورة برهما وهو يجمع بين الذكورة والأنوثة في جسد واحد وصدق نفسه وصدقته أناس من مريديه حين خيل إليه أنه روح الله حلت في حثمن إنسان لإنقاذ المسلمين والمسيحيين وأبراهمة بدينه الجديد ومن اليسير جداً أن يلمس المرء في هذه الحركة بقية من بقايا البيئة الهندية التي نشأت فيها عقيدة تقمص الأرواح وبجدد الروح في حثمان بعد حثمان تارة حثمان ذكر وتارة حثمان أنثى ، ومرة رسم حيوان ومرة رسم إنسان .

وظهر في إيران ميرزا علي محمد الشيرازي وزعم أنه الإمام المنتظر ثم انتحل عقيدة الإسماعيلية وبت فيها عقيدة وحدة الوجود ثم وثب من ذلك إلى القول بصلان الشريعة الظاهرة ، والأخذ بالحقيقة الباطنة التي تبيح أصحاب الحلول - حلول الإله في الإنسان - أن يتصرفوا في الأحكام والقواعد الدينية تصرف الوحي الجديد ، لأنهم يستوحون مشيئة الله فيما يقولون ويعملون . ثم جهز بإلغاء بعض الشعائر المقدسة التي اتفق عليها المسلمون بنصوص لقرآن

ومن اليسير جداً أن يلمس في هذه الحركة نزعة البيئة التي نشأت فيها طلائع الباطنية والإسماعيلية ، بل نزعة البيئة التي نشأ فيها لإيمان بحلول أورمرد في حسد «مترا» رسوله الأمين في حربه الأبدية لإله الشر أهرمان .

وظهرت في الجزيرة العربية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي تنكر النrof في الكساء واللباء ، وبطل معاني الرموز والإشارات والنوئل بشيء من الأشياء يقع عليه الحس ، من جماد أو ذي حياة ومن اليسير جداً أن يلمس فطرة الصحراء في هذه الصرامة الخلقية وهذا الفصل الحاسم بين عالم الحس وعالم انقياس ، خلافاً لتلك الأقاليم الهندية والفارسية التي امتزج فيها الحس بالتخييل واتصل فيها علم الأرض بعالم السماء .

وظهرت في السودان دعوة المهدية لتحريم الترف والتبذير بالطعام البسير والاكتفاء بالمرقعات التي تلبسها الدراويش ، وتحريك الشعب لحهاد «الترك» وإخراجهم من البلاد ، وهم عند أصحاب هذه الدعوة كل جنس غير الجنس العربي ، ولا سيما الأجاس البيضاء .

ومن اليسير جداً أن نلمس في هذه الدعوة ثورة السودانى على مستغليه بالوسيلة التى فى وسعه أن يثير بها إخوانه للجهاد ، ومحاوئته أن يعالج الفساد بالعلاج الذى يجدى فى معيشة السودان البدائية التى كانت يومذاك خلواً من عقد حياة العصرية ومشكلات المجتمع الحديث .

وظهرت فى مصر دعوة لإصلاح التى وجدت إمامها الأكبر فى الشيخ محمد عبده رحمه الله ، فكانت تعليمًا جديدًا فى مدرسة قديمة ، أو كانت تفسيرًا للقوانين الإلهية لا يخرج بها عن خصوصها ولكنه يحفظها فى تلك النصوص ، ويقتبس منها معنى الذى يوافق معارف العصر الحديث .

ومن اليسير جداً أن نلمس فى هذه الدعوة روح مصر التى عرفت نظام الحكم منذ ألوف السنين ، وتعودت أن تدين بصوص الأمر والنهى من ملك بعد ملك وأسرة بعد أسرة ، فليس فيما تعمله أو تدين به إلا ما هو نص محفوظ أو مستمد من النص المحفوظ ، بالمعنى الذى لا يخرج عليه . أو هى روح مصر التى عرفت منذ قام فيها بالسبوة فرعونها أحنابون . وهى لامة الوحيدة التى تلبس ثوبها من عرش وصولجان

وليست الحركات الحاصلة بين هذه الحركات هى الأثر البقى أو الأثر الشامل الذى أحاط بالعالم الإسلامى فى حركة الاضطراب التى جاشت بين أرجائه من جراء الصدام بينه وبين الحضرة لأوربية ، ولكنها هى العجاجات التى دلت على قوة الرحمة واختلاف مهاب ، لرياح أما الأثر ، لباقى أو الأثر الشامس فهو خصوص الأذهان من وشاب لحرافات والأناطيل التى كنت تعوقها عن فهم حقائق وإراك العلل والأسباب والاستواء على بهج التفكير الصحيح ، والإيمان بدين بمثابة لا يمنع التقدم ولا يعرقل جهود المصحين ، ويمكن المسلم من أن يرضى عقله ويرضى ضميره ويزيل الفوراق ما استطاع بين رضى العقل ورضى الضمير

وقد صمد الإسلام لدرجة الأولى و تنضمت المصالحة بينه وبين الحضارة العلمية ، فلم تعد لمشكلة ليوم بينه وبين العلم حديث أو التفكير المستقيم ، وإنما المشكلة ، ليوم أن يودى رسالته ورسالة الأديان عامة فى مكافحة اللوثة المادية التى تلغى مطامح الروح وتود لو جعلت الإنسان حيواناً بغير دين غير دين المعدات والأجسام

الأخلاق والعادات

من العسير أن يقال إن الأخلاق الأوروبية، تنقلت إلى الشرق بمحسنيها أو مساوئها بعد احتكاك الشرقيين بالحضارة الغربية لأن لعوامل التي تتولد منها الأخلاق - بين ورثية وإقليمية واجتماعية - لا تدقل من أمة إلى أمة في فترة قصيرة كالفترة التي مرت بالشرق الحديث بالقياس إلى تاريخه الطويل .

لكن التشبه بالأمم بغلبة في عاداتها ومظهر معيشتها هو نفسه عادة من العادات الأصيلة في طبائع الناس وقد نعود الشرقيون كما تعودتها من قبلهم سائر الأمم فنشبهوا بالأوربيين في هذه المظاهر منذ شعروا بالافتقار إلى مصنوعاتهم واستكاثوا إلى الصعف أمام قوتهم فلبسوا ملابسهم وأكلوا مناكلهم وسكوا في أوقات فراغهم وبهولهم وكثر ذلك في المدن الكبرى وموسى المطروقة لضرورة الانصراف بين أهلها وبين الأوربيين في المعاملات والمرافق التجارية ، ثم تسرب قليلا قليلا إلى داخل البلاد جرياً على سنة أهل الريف في محاكاة أهل الحضر وانتمثل بهم في سمات الوحاة وشارات لنرف والحضارة فجاوزت المحاكاة حدود الضرورة ومقتضيات المعاملة

وكان من تلك العادات ما هو حذر وما هو شر فمن الحذر الإقبال على الألعاب الرديئة والبهمة الخلوية ، ومن الشر الإقبال على المرقصة والمخاصرة بين الحسنيين ومع وجود الرقصات الوطنية لبريء التي يتلاقى فيها الجنسان على نحو لا يخالف آداب المروعة والغروسية ، ولا يصعب تهذيبه وتحسينه حتى يصبح رياضة من الرياضات التي تحيي لنفس والجسد ولا تخل بالأدب والحاء .

وليس من الحق أن الحضارة الأوروبية خلقت بفساد في الشرق خلقاً من حيث لم يكن له وجود قبل تفرس أشرقيين بأسس تلك الحضارة

فإن الشرق قد مُني في ، بام جموده واضمحلاله بضروب شتى من الفساد كانت تنخر في عزائمه وتصيبه ولكن الحق أن الحضارة الأوروبية روت الفساد بمسحة من الطرافة تستهوى النظر وتنفي عنه السير الدميم الذي كان يصد عنه أصحاب المروءات ، فستأخه من لم يستنحه قبل ذلك

ولم تسلم أصول الأخلاق من صدمة عنيفة أو مساس رقيق من جراء الالتقاء بين الشرق القديم والحضارة العصرية ، فإن أصول الأخلاق تقوم على العرف أو سلطان الجماعة على الأفراد . وقد صُدمت هذه الأصول في الصمم عن قصد وعن غير قصد من الأوربيين أو الشرقيين على لسواء . وكنت صدمتها من جهتين مختلفين وقد يبدو للنظرة الأولى أنهما متناقضتان ،

فالمظاهر الأوربية قد خربت قلوب اشرقيين بالشك اقوى في حقائق اعرف لاجتماعي الذي درجوا عليه ، مرجعوا إلى أنفسهم بتساعون عن قواعد ذلك العرف ومسئفها من الحقيقة والسداد . واعتراهم هذا الشك في عرفهم القديم قبل أن يخلفوه بعرف جديد يناسبهم ويصلح لهم ويتأتى لهم أن يتواضعوا عليه وهذه إحدى الصدمتين

أما ، لصدمة الأخرى فكانت من قبل الحرية الفردية التي أباح للرد فجأة أن يستقل بأمواله ورواته وآرائه ، وإن خرج بها عن آداب الجماعة المتفق عليها . فنُصبت الحرية مرادفة لصلب التغيير والتبديد ، أو مرادفة للجراءة على النقد والمعبد . واقتربت قلة الحياء بقلة المبالاة ، كما اقتربت الشجاعة الأدبية أحياناً بالإقدام على لمعيب والشهوات ،

وإذا كان في هذا التحول مدعاة للتشاؤم والتطير من المستقبل فهو لا يخلو في بعض دلالاته من نواحي التفاؤل والرجاء . لأن عصر لجمود في اسلاف الشرقيه قد خلف وراءه كثيراً من الانقراض المعطلة والأركان المتداعية . ولا بد من هدم قبل كل بناء ، ولا بد من عيار وسقوط حول كل

مهدوم ، ولا بد من تعثر قبل كل استقامة على السواء . فإذا تكشف
العبار واتصحت القواعد البقية ، والقواعد التي يرتفع البناء الجديد على
أساسها فقد يهون التشاؤم ويبطل التطير ، ويتراعى للبصائر والأبصار
معالم الثقة والاطمئنان .

والحكم لمعد فيما يقر عليه القرار . فليس على الغيب تعزيز أن تنبعث
من جانب الشرق رسالة روحية تتجدد بها أخلاق لشرقيين وأخلاق
العربيين . فكلها هي حاجة إلى التجدد في هذا الزمان

الأدب والفن

يصدى للرجمة إلى اللغة العربية قديماً أناس من غير أهلها
واشغل أهلها بالترجمة وهم بجهلهم لغتهم ولا يحفظون قواعدها أو
يحسنون أساليبها.

فوقر في الأذهان أن أسلوب الترجمة علم على الصعف والركاكة ،
ومخالفة الذوق لعربي ولقواعد النحوية لأنه لم يخل في الزمن القديم
ولا الزمن الحديث من الدحيل والمبدل واللحن وبراء العبارة وسقم
التركيب.

ولكن النهضة في الشرق العربي صاحبت برحباء الكتب المهجورة
ودحائر الشعر والنثر والتي تفيض بالبلاغة العربية من معديها ، فتحدثت
الأساليب وصقلت العبارات وسلمت الأنواع ، واقترنت معرفة العربية
بمعرفة اللغات الأوروبية فحصلت الترجمة من وصمة الصعف والركاكة
وظهرت في السان العربي كتب علمية وأدبية تضارع أصولها في صحة
تعبيرها وقصاظة ألفاظها ووفرة معانيها

وعادت الترجمة في هذه الكرة بنفع جليل على اللغة العربية ، لأنها
عوت أقلام كتاب «فصد لعدرة» وأن يعنى الكاتب ما يقول ويصاغ
المعنى باللفظ الذي يؤديه ولا يرسل الكلام إرسالا بغير قصد مفهوم

، كان الكاتب لا يحسب من البلغاء إلا إذا توخى السجع وحشا كلامه
بالقوالب لمحافظة من أقوال الأقدمين ، وكان على هذا سجقا سقيما
وقداسا يساق في غير موضعه ويند عن السياق الذي وضع فيه ، فبرنت
الكتابة العربية من هذه الآفة وتحصت شيئا شبيهاً من التعليل ، وثابت
في الطبع الأصير حسبا يستوحيه الكاتب من معارفه ومشاهداته .

وكانت الصحافة مم تقه الشرق العربي عن الغرب فساعدته على
سهولة الكتابة وشيوع كلمات الفصيحة وتعدد أغراض القول ، وكانت

العلوم الحديثة والكتب المترجمة من الموارد الفكرية التي وسعت مسرح التأليف والتصنيف وأنشأت طوائف شتى من الأدباء على مذاهب الوصف ودراسة الأصوار النفسية وقصص الواقع والتاريخ

«القصيدة» هو الفائدة التي يتلخص فيها نهضة الشعرية كما كان هو الفائدة التي يتلخص فيها نهضة النثر بأنواعه بعد حركتك شرق العروى بالحضارة الأوربية

فكان لشعر يقول ما تعود لناس أن يقال لهم في كل مناسبة من المديح لا ما يريد هو أن يقول ، وكان على هذا قلب يحسن المحاكاة أو يتجاوز محاكاة ، لبقاء لما يقع في سمعها من لحمل الجوفاء

فنشأ لشعر المقصود وبررت ملاح «الفرد» المستقل في دوائر الشعراء ، وقت القوال المطروقة بحقدار ما كثرت المعاني المطبوعة والأغراض المبتكرة ، وضاعت الأوزان القديمة بهذه الأغراض فنجحت الدعوة إلى القامية العرسلة والأوزان لحرية ، وتوسع لشعراء في أوزان الموشحات القديمة فأضافوا إليها كثيراً من العجائب والأوضاع الحديثة

ومن المقابلة بين ديوان قديم وديوان جديد يبين التغيير العصري الذي تحاوز الصيغ والألفاظ إلى الأغراض والعروضات

فهم تكن للديون القديم سمة يتميز لها بين الدواوين غير مسسته إلى ناضمه بالاسم أو باللقب أو بالكنية ، كديوان جرير أو ديوان البحتري أو ديوان أبي تمام ولم يكن للقصائد أغراض غير لأبواب ، المعهودة في المدح والفخر والوصف والعزل والحكمة والرثاء والهجاء ، ولم يكن للقصيدة عنوان يميزها بين قصائد ديون الأخرى

فبررت «الملاح» المعنوية في الدواوين الحديثة ، وأصبح للديون اسم يشير إلى فحواه ، وللقصيدة اسم ينم عن موضوعها ، وللنظم أغراض في الرواية والمشاهدات النفسية والاجتماعية والرموز الفلسفية أو العلمية واعتمد الشعراء على القراء وما يحسونه ويتوقعون إلى انضمامهم ، وكنتم معتمدتهم قبل ذلك على الممدوحين وأصحاب الهبات

وتفاوتت الأقطار العربية في مدى التجديد على حسب تفاوتها في أسباب المحافظة على القديم وأقوى هذه الأسباب هو الاقتراب من مناسك أو مواطن البداوة أو جامعات العلم التاريخية ، فهي تمنع التجديد أن يطلق بغير كاسح بثبت أو يبين

* * *

ورجت الفنون الجميلة في لشرق العربي على قدر نصيب الفن من لطبيعة الاجتماعية ، فسبق التمثيل ولحق به الغناء ثم التصوير ، وكان أروع الفنون ما يجمع بين الرؤية والسمع والفكاهة في وقت واحد ، كالعرض (لريفيو أو الاسكتش) ، والحوار ، والديالوج . و لألقية (المونولوج) لأنها تجمع في المحافل بين التمثيل والموسيقى والرقص في بعض الأحوال ، ولهذا لا تزال صبغة لتسلية أوضح وأروع من صيغة الفن المحض الذي يراء لمعاه الرفيع

* * *

ومن المفارقات الصادقة أن الاقتباس من أوبرة عاق فن لتمثيل عن بلوغ شوطه في التقديم والأصالة ، لأن أصحاب المسرح استطاعوا تسلية الجماهير بنقل المناظر استمثالية التي تقوم على المفاجآت و لالاعيب المسرحية . ولا ترجع إلى طبيعة البيئة تستلهم منها موضوعاتها ونماذجها الشخصية ، ولم تزال افة التسلية في جميع معارضها أن توكل الفن بالتوق لشائع المستدل ، ويس هو على الجمة بأفضل الأذواق .

ثم ابتلى التمثيل بمزاحمة اصور المتحركة فأصبح من الميسور أن يعمل في التمثيل سينمائي من لا يحسنون الفن ولا يتكلفون جهداً من اجمهور لتقافة ، لأن لتمثيل السينمائي يجري في عزلة عن النظارة ، ويستطاع تحضير أواره قطعة قطعة في أوقات منفردة كما يستطاع تصحيح أخطائه كلم وقع الممثلون واممثلات في خصاً منها فبطلت الحاجة إلى الاتقان ودرسه الثقافة الفنية ، ويسر الريح الجزيل مع الخبرة الناقصة والجهد البسير ، فأصيب الفن الصحيح بحبسه في

نمو بحور الخلاص منها، ولم تسفر هذه المحاولات بعد عن مصيرها واستقر لذيق الاجتماعي في الموسيقى والعناء على يد الألحان القديمة ، لأنها في جمده وقعوف وغلبة « لتتؤب » عليها لا تلائم حركة الجيل الحديث ، ولكنه أعرض عن القديم ولم يخلق له ممطاً مطبوعاً يستقر به عن المحاكاة والتلفيق ، فنصبت الأعاني الفنية الحديث توقيفاً لا يعرف له رى مرسوم .

ومن عجيب ما يلاحظ أن النصوص الشرقى على تأخر ظهوره بين الفنون الجميلة كان أسبقها إلى التقدم والاستقلال ، فنبغ في شرق العربى مصورون من أصحاب الطريقة المدرسية أو الطريقة الإحسانية يضارعون نظراء هم في الأقطار الأوربية أو يحسبون من تلاميذهم المجودين ، ولعل هذا الفن قد نشط في صريق التقدم لأنه يستند إلى ثقافة الأفراد سواء كانوا من المصورين أو من صلاب الصور ومشجعيها ، وأنواق الأفراد في جمته أسبق من أنواق الجماعات

وحدث ما كن منظوراً أن يحدث من تعديل في طرر ابناء وزحارف فن العمارة ، تبعاً لتغير اعبادت وعوارص العمران فبعد سفور امرأة لم تعد ثمة حاجة إلى المعالاة في قصاء زوايا لحريم عن الطرقت العامة والأفنة المكشوفة ، وبعد اسر وح الكهربائي وأجهزة التكييف الهوائى لم تعد ثمة حاجة إلى الخرخات والأفنية والمشربييت ولا إلى تعلية السقوف ومدخر لتظليل وبعد غلاء ثمن الأرض وتفسيم الشرق واميادين تعدر اقتناء القديين الواسعة لإقامة القصور في قلب المدينة ، وكان سراة لقوم يختارون السكن في قلب المدينة ليستأثروا بوسط العمار ، قلما انتظمت المواصلات الخاصة ولعامه عظم لإقبال على لصواحي النائية وشاعت نمذج « لفيلات » ، لتى شتى الغرييون سمها من سم الريف والحلاء

ولا يحفى أننا نلم هنا بالخطوط المجملة و لخطوط العريضة البائنة ، ولا نستقصى جميع التفصيلات التى يتشعب هنا وهناك ويقع فيها الاختلاف بين أمة وأمة بين إقليم وإقليم فى الأمه الواحدة ، حيثما اختلفت دواعى الحضارة والعمران .

الزحافة

سُرى الدعوة السياسية عملٌ من الأعمال التى حذفها الأمة لعربية فى ابن دولتها الأولى وهى دولة بنى أمة فبلغ الدعاة العباسيون بالدعوة مسخ القرن المحكم الذى يحاط بجلاله ودقائقه وعبادته ومراميه ، ووضعوا فيه القواعد لاختيار أشخاص الدعوة وعلاقة بعضهم ببعض فى درجات الرئاسة أو درجات الرملة ، ورتبوا الدعاية وموضوعاتها وما يذاع منها ، يُصن به على غير الخاصة والصفوة المحترمة

وحاء الفاطميون فنموا هذا الفن من جميع نواحيه ، وقسموا الدعوة إلى دعوة ثقافية ودعوة دينية أو سياسية وتدرعوا بالفلسفة لإقناع بعض العقول وبالتصوف لإقناع بعض العقول الأخرى ، وجعلوا بهم حلقات حول الدعوة لا تطلع على سر من أسرارها ولا تفضى إلى غرض من أغراضها ولكنها تشابيحهم بمودتها فتكون لهم على خصومهم ساعة الفتنة التى يدبرون موعدها ومقدماتها

ولابد من التفرقة بين هذا الذى سبقت به الأمة لعربية سائر الأمم وبين «المؤامرات» التى كانت تدبر فى الخفاء لإقامة دولة وإسقاط أخرى ، فإسقاط الدول بالمؤامرات لخفية تدبير قديم عرفة الطامحون إلى الملك منذ فجر التاريخ الإنسانى ، وقامت به الدول فى كل أرض وبين كل قبيل ، ولكنها كانت «مؤامرات» للاستتاع ولتأليب وتحشيد لفرص ونجند القوى العسكرية والمالية للعمل المفاجئ فى الوقت الملائم الذى يرحى فيه النجاح ولم تكن دعوة إقناع أو حملة بوحية منظم للفكر والشعور ، فإن تاريخ لم يعرف دولة قامت على مثل هذه الدعوة قبل الدولة العباسية والدولة الفاطمية ، ولم تكن فى ذلك حرفة ولا داعية ليعجب لأن العباسيين والفاطميين كانوا يعتمدون فى مطالباتهم بالخلافة على الحق الدينية والفتاوى الشرعية فلا بد لهم من كسب الشعور وكسب العقول

ومن التوسل إلى ذلك بالدعوة المقنعة ، مع الاستعداد بالأمر بعدد الأسلحة والحيوش

والدعوة السياسية . أو فن النشر - قد كانت معروفة قبل ظهور هذا الفن في أحدث صورة لعصرية وروحها واقعاها ، وفي الصحافة الدورية ولكن الصحافة مع هذا «توليد» عصري لم يكن من المستطاع أن يوجد قبل أوانه الذي وجد فيه ، وإن كثرت الحاجة قريبا إلى الدعوة والدعاة

فليس من المستطاع أن توجد الصحافة قبل عصر المطبعة السريعة التي تطبع الألوف من النسخ من كل يوم ، وقبل عصر الأنباء الدفعية التي تجعل لاهتمام بقراءة الصحيفة منتشر في نطاق واسع بين جمهور كبير يتشوق إلى مصالحة تلك الأنباء ، وقبل وسائل الحواصل التي تتكفل بتدولها في أوانها وقصر حترع الصور الشمسية التي نشأت الوقائع وتمثلها ونعرض للقرء فيوبا من الملامح والأشياء للتسلية أو للتوصيح

وإذا توافرت الأدوات جميعها فلا بد معها من الأداة الكبرى التي هي أكبر وألزم لرواج الصحافة من كل أداة ويريد بها أداة الجمهور الذي يعرف القراءة ويدخر في حسب الصحفيين والساسة والكتاب

فقبل وجود هذا الجمهور لا توجد الصحافة بحال ولا تدوم إذ وجدت محض الاتفاق ، وقد أصبحت الصحافة محترعا لأرما يوم أصبح الجمهور قواما للدولة أو أصبح كما يسمونه في عصر الحديث «رأيا عاما» وأصبح «الرأي العام» مصدر السطاب والقوبين

وانتقلت الصحافة من أوربة إلى الشرق العربي بعد أن تمهدت لها جميع هذه المقدمات .

تنقت إليه بخيرها وشرها ، فاستفد من خيرها كثيرا وابتلى من شرها بكثير ، ولا يزال يبتلى بها ويستفيد .

فمن حيرها ولا شك أنها كانت وسيلة فعالة سريعة الفعل في نشر المعرفة العامة وبث الدعوات القومية واستنهاض العرائم لمكافحة لسيطرة الأجنية وترقية اللغة وديم التقريب بين لغة العم والأب ولغة البت واستوق

ومن شرها ولا ريب أنها شغلت الناس بنفسها الأمور وطبعت الرواج
والانتشار بإثارة الفضول وتزويد القراء بما يرضيهم دون ما ينفعهم من
الآراء ولأنشاء وأنها سميت ردم الحماهير لمن يستطيع أن يشتري
أقلامها أو يسخرها ، وأن لاقل عليها بصرف القراء عما هو أفضل
منها وأولى بالانصراف إليه من نواع المطالعة والتحصيل ، لمفسد
ومهما يكن من محد الصحافة عندنا وعند غيرها فهي مأخذ لا تخلقها
لصحافة ولا ترجع اللائمة فيه على الصحافة وحدها لأنها بصاعة لا
تنفق ما لم تطلب ويكثر الإقبال عليها ، وإن كانت الصحافة تريد الإقلال
بالترغيب والترديد .

وبنية الأمة التي تروج فيها الصحافة هي ، المسبولة عن شرورها ، وهي
لمطالبة بحق الترياق الذي يبرأ سمومها ويحتفظ بعدادها لصالح السليم
والذي تنح من تحارب الأمم العربية ، بها أحدث تقسم لصحف عندها
إلى قسمين تتسع الفحوة بينهما عاما بعد عام وهم قسم لتسلية
وقسم المراجعة والدراسة ومن المشاهد المتواتر في أوربة وأمريكا أن
صحف التسلية بطبع الملايين في اليوم الواحد ولكنها لا تؤخذ مأخذ
الحد ولتوقير ولا يحفل الناس ماذا تقبل وماذا تندي من الآراء ، وإن
صحف لمرحاة ودراسة محدودة القراء أو محدودة البصاق في
الأقاليم ، ولكنها مرجع معول عنه في تكوين الأفكار وتلقي المعلومات
لا أن لصحيفة لمسلية قد تقع قراؤها بالتأثير « لآلى » ولا تهيم
بالتأثير « لآلى » إذ ضمنت الرواج

ومعنى ذلك أن الحبر الذي يتلقاه ثلاثة ملايين من القراء ويتوحي
الصحيفة وقته لمصالح ومصغته الشائقة وهدفه المقصود لز بخو من
أثر يصيب لمصالح العامة ويشبع ، لفلو هي النفوس ويصنع لسياسة
الحسنة بما يشوهها كما يصنع السياسة الشائبة بما يجرحها ويحبسها
على الأنظار ، ولا مالاذ هي هذه الحالة بمكانة صحيفة وكتبها هي
قوب لقراء لآلى الأثر « لآلى » يسلط سيطرته على ملايين القراء بمعزول عن
الأثر الأدبي الذي يستقيسونه بالحذر أو الاعراض إذ يصنع لهم في قالب

لنصحه والتوجيه ولا نعلم اليوم كيف يحل الغرب والشرق مشكلة الصحافة في الحيل القادم ، وكبنا نستطيع أن نعلم ماذا يكون إذا سارت الأمور على استقامة وصلاح ، وماذا يكون إذا سارت على نقبض لاستقامة والصلاح ،

فبدأ بقى التأثير الألى مقروناً بالرواج والقوة فهو خطر وبيد العواقب قد يربى على جميع م ابتلاء الناس من أخطار الدعاية فى أطوار لتاريخ

وإذا خيف من الشر أن يبلغ مد ه فقد تعتصم منه الإنسانية بالبريق الوحيد الذى يجدى عليها فى هذه الحالة ، وهو إسقاط «الدعاية الآلية» من كل حساب ، والفصل بين صحافة التسلية وصحافة الرئى بفاصل منيع لا يأذن لجانب الخطر أن يطغى على جانب الأمان . وقد يكون فى ذلك بابٌ لخير الشامل يوضع منه بنو الإنسان إلى عالم جديد ، لأنهم يعرضون عن «الآلية» بعد استنفادها والانتهااء بها إلى عانها لقصى ، ولا يقبمون وزناً لعبير رسالة الروح إلى الروح وتوجيه الفكر للفكر ، وعقيدة الإنسان فى إمامة الإنسان .

إجمال

عني عن لقول أن لبلاد الشرقية نلت دروساً كثيرة في العلوم والصناعة التي تسمى أحياناً علوم أوربة وصناعاتها ، إما في مدارس أوربة نفسها وما في المدارس لشرقية التي أنشئت على غرارها

وهذه حقيقة وأقعة عنية عن الإفضة في شرحها مفهومة بطبيعتها . ولأن المهم عندنا في تسجيل آثار الحضارة الأوربية في الشرق هو الآثار لنفسية التي كان لها مساس بروح الشرق وصمائر أبنائه ، ولست ممن يرون أن العلوم والصناعات المنقولة كان لها في ذاتها ذلك الأثر إلا من طريق الخطأ في فهمها واستحلاص مراميها ، لأنها تدخل في حيز المنقولات العقلية والمنقولات الآلة لا تستتبع بعدها نقلاً خطيراً في عالم الروح وسرائر الوجدان

وعلى سبيل التفسير يهد الرأى مرجع إلى قول بكروية الأرض ودورانها . هذا القول لم يكن بالجديد على الثقافة الشرقية ، ولكن الأدلة الحسية لم تكن مثبتة له في تصوير الدهماء وأشياء الدهماء من أصحاب المعصومات القصرة ، فاستطاع الجهلاء أن يكروه وأن يلصقوا إنكاره بما فهموه من ظواهر النصوص الدينية ، فما جاء القول بكروية الأرض ودورانها عن طريق الغرب وجاءت الكشوف الجغرافية بما بثبت هذا القول القدين أخطأ الجهلاء فهم الدين وهم العلم الحديث ، زماناً سرى فيه الشك إلى صمائر المتعصمين ، ولم يسع هؤلاء المتعصمين إنكار كروية الأرض أو أنكار دورتها ، وظل هذا الشك سارياً إلى أن قرت الحقيقة العلمية في بصيها وعجر الجهلاء عن مقاومتها بالنصوص لدينية فزال العارض الذي أصاب الصمائر من خطأ الفهم وخطأ التأويل .

وهذا الذى عنيناه بقولنا إن العلوم والصناعات لم يكن لها مساس
جوهري بالحياة الروحية فى البلاد الشرقية ، لأنها قد استطاعت أن تستقر
فى حيز المعارف العقلية أو المعارف الآلية دون أن تقلق بواطن الضمير .
والأولى عندنا أن يقال إن الحياة الروحية فى البلاد الشرقية قد تأثرت
من طريق ظواهر المعيشة ومن طريق المذاهب الفكرية ، ولم تتأثر
مباشرة من طريق العلم أو الصناعة .

فظواهر المعيشة التى حملها الأوروبيون معهم إلى بلاد الشرق العربى
قد نشرت معها جواً من الإباحة الفعلية والاستخفاف بالقيود الأخلاقية
الموروثة . فقلّ الحرج من سماع الآراء الطارئة وتوجيه النقد إلى
الشعائر المرعية ، وكان أثر هذا كله فى الحياة الروحية أعمق جداً من
كل أثر سرى إلى الضمائر من معارف العلم والصناعة .

أما المذاهب الفكرية التى لامست عالم الروح فى الشرق فهى من
قبيل مذهب النشوء والارتقاء نيتشه ومذهب التفسير المادى للتاريخ
وفلسفة المقارنة بين تواريخ الأديان ، وهى - على أقوى ما نلاحظه من
آثارها - لم تتجاوز أثر الفلسفة القديمة ولا مذاهب الشيع المعتزلة التى
شغلت عقول المشاركة فى أواسط الدولة العباسية وما بعدها ، وقد كانت
آثارها هذه فردية لا تتعدى المئات من المفتونين بها إلى ضمائر
الجماعة بأسرها ، وكان جملة المفتونين بها ممن يتلقونها ويتخطفون
عناوينها ولا يحيطون بأسرها ومضامينها ، وكانوا فى الزمن القديم
كما كانوا فى الزمن الحديث على غرار الأخذين بمذهب النشوء والارتقاء
ممن خيل إليهم أن هذا المذهب قد حل مشكلة الوجود . وهو فى
جوهره على التحقيق لم يزد على أن جعل «خلق الإنسان والحيوان»
مسألة هلايين من السنين بدلاً من مسألة ألوف ومئات ؛ ولم يلمس قط
سر الخلق الأبدى الذى لا يزال ياباً مفتوحاً للتفكير والاعتقاد . بعد كل
ما قيل فى مذهب النشوء والارتقاء .

فالمذاهب الفكرية التى أشرنا إليها لامست روح الشرق فى نطاق
الأفراد المعدودين ، ولمسته فى هؤلاء الأفراد لمساً عاجلاً قريباً لا
يستأصل جنود اليقين ، إلا ما كان من هذه الجنود قريب الاستئصال .

والمهم فيما بقي بعد هذا من آثار الحضارة الأوربية على بلادنا وشعوبنا هو الذي عرضنا له في الفصول السابقة ، ويتلخص في انتباه الشرقيين إلى فهم الدين وفهم الوطنية وفهم العلاقة بين الفرد وبين الله والعلاقة بين الفرد والدولة فهماً يتحدى أساطير الجمود ومخلفات الجاهلية في عصور الضعف والاضمحلال .

وننتهي بالبحث كله إلى عبرتين خالدين : أولاهما أن الأمم الشرقية والغربية جميعها دائنة ومدينة في تراث الحضارة الإنسانية ، وأنه ما من أمة لها تاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من ذلك التراث .

وثانية العبرتين أن الأمم تستفيد في باب الحضارة على الرغم منها وعلى الرغم ممن يقيدوها . فالمستعمرون الغربيون لم يقصدوا تعليم الشرقيين حرية الأوطان ولكنهم تعلموها وهم ناقدون ، والشرقيون قد شحذوا السلاح الذي ضربتهم به يد الاستعمار ؛ وأصيبوا به قبل أن يعرفوا كيف .

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

« وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

فهرس الكتاب

٣	تمهيد
٧	من هم العرب ؟
١٠	العقائد السماوية
١٤	آداب الحياة والسلوك
١٧	التدوين
١٩	صناعات السلم والحرب
٢٢	الأصل والنقل
٢٧	الطب والعلوم
٣٧	الجغرافيا والفلك والرياضة
٤٩	الأدب
٥٥	الفنون الجميلة
٦٠	الموسيقى
٦٥	الفلسفة والدين
٨٣	أحوال الحضارة
٩١	الدولة والنظام
٩٧	أثر أودية الحديثة فى النهضة العربية
٩٨	سداد الديون
٩٩	الاجتماع والسياسة
١٠٧	الحكومة البرلمانية
١١٢	الوطنية
١١٧	الحركات الدينية
١٢١	الأخلاق والعادات
١٢٤	الأدب والفن
١٢٨	الصحافة
١٣٢	إجمال

مؤلفات عماد الدين الأديب العربي

المكتبة الكبرى

عباس محمود العقاد

- | | | |
|---|--------------------------------------|--|
| ١ - الله | ٢٧ - سارة | ٥٣ - يوميات الجزء الأول |
| ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء | ٢٨ - الإسلام دهره عافية | ٥٤ - يوميات الجزء الثاني |
| ٣ - مطلع النور أو غزوات الحقبة المجددية | ٢٩ - الإسلام في قلوب العشرين | ٥٥ - عالم السوء والقيود |
| ٤ - عقيدة محمد ﷺ | ٣٠ - ما يقال عن الإسلام | ٥٦ - مع عامل الجزيرة العربية |
| ٥ - عقيدة عمر | ٣١ - حقائق الإسلام وثباته وحصونه | ٥٧ - مواقف وشعابها في الأدب والسياسة |
| ٦ - عقيدة الإمام علي بن أبي طالب | ٣٢ - التفكير فريضة إسلامية | ٥٨ - دراسات في الثقافة الأدبية والاجتماعية |
| ٧ - عقيدة خالد | ٣٣ - فلسفة القرآنية | ٥٩ - آراء في الأدب والفنون |
| ٨ - حيلة المسيح | ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام | ٦٠ - بصيرة في اللغة والأدب |
| ٩ - حر ليرين عثمان بن عفان | ٣٥ - أثر الحرب في الحضارة الأوروبية | ٦١ - جواهر علي بن عبد الله والنص |
| ١٠ - عمرو بن العاص | ٣٦ - فتاوى العربية | ٦٢ - جيل وفن وفلسفة |
| ١١ - معاوية بن أبي سفيان | ٣٧ - اللغة الشاعرة | ٦٣ - قول وشجون |
| ١٢ - مدائح السماء طلال بن رباح | ٣٨ - شعراء مصر وبائهم | ٦٤ - قبح ومعايير |
| ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي | ٣٩ - ثلاثيات مستعمات في اللغة والأدب | ٦٥ - العيون في الأدب والفن |
| ١٤ - فاطمة الزهراء والفاطميون | ٤٠ - حياة المم | ٦٦ - عهد القلم |
| ١٥ - هذه الشجرة | ٤١ - خلاصة السيرة والفتور | ٦٧ - ردة وحشود |
| ١٦ - الجليس | ٤٢ - حبيب نوى العفان | ٦٨ - ديوان بقعة الصبح |
| ١٧ - جماعة القراءات الصالحة | ٤٣ - لا شيعية ولا معتزلة | ٦٩ - ديوان ومع الظهيرة |
| ١٨ - أبو بكر | ٤٤ - شيعية والإنسانية | ٧٠ - ديوان الخباج الأحيل |
| ١٩ - الإنسان في القرآن | ٤٥ - القصيدة العامة | ٧١ - ديوان وحي الأرواح |
| ٢٠ - المرأة في القرآن | ٤٦ - أسوان | ٧٢ - ديوان هذه القروال |
| ٢١ - طريق الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده | ٤٧ - أ | ٧٣ - ديوان على سبيل |
| ٢٢ - سعد الخطيب رحيم القوي | ٤٨ - عقيدة الصديق | ٧٤ - ديوان أعلامه مقربة |
| ٢٣ - روح عقيدته لعماد الدين | ٤٩ - تصديقه بنت العنبر | ٧٥ - ديوان بعد الأمل |
| ٢٤ - عهد الرحمن الكواكبي | ٥٠ - الإسلام والحداثة الإنسانية | ٧٦ - ديوان ثبات الليل |
| ٢٥ - رجعة أبي الملاء | ٥١ - موجع لأجاء | ٧٨ - ديوان من حوافر |
| ٢٦ - رجال عرفتهم | ٥٢ - الحكيم الثاني | ٧٩ - ديوان في الميزان |
| | | ٨٠ - ديوان الشعوب |
| | | ٨١ - ديوان المبرور من قلم وما سيكون |
| | | ٨٢ - قنطرة والأديان |

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)

وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

